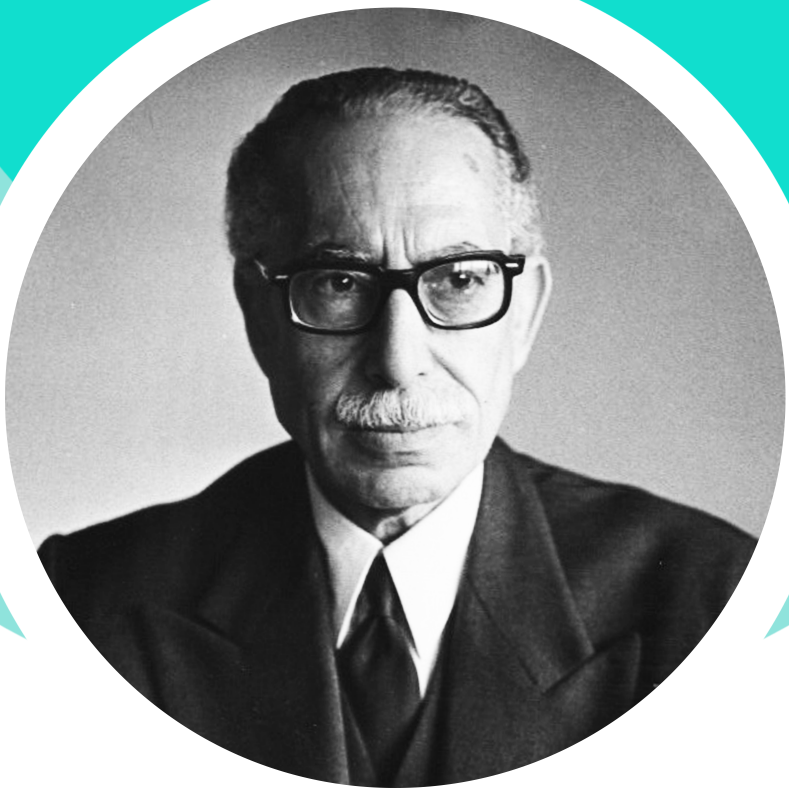

حديث
مع الكوكب

توفيق الحكيم

حديث مع الكوكب

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

حديث مع الكوكب

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩١٣ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة	٧
ما هي البشرية؟	٩
ما هي الحقيقة؟	٢٧
ما هي القوة؟	٤٥

مقدمة

هذا الكتاب، بما يحويه من مناقشات مفترضة مع كوكبنا الأرضي، ليس المقصود به إقرار حقائق جديدة أو الكشف عن حقائق مجهولة؛ إنما هي مناقشات فيما يبدو لنا أنه من البديهيات؛ فليس هناك، في واقع الأمر، بديهية إلا وفي داخلها عوالم تحتاج إلى غوص وبحث.

والغرض الحقيقي من هذا الكتاب هو إذن تحريك الفكر، وليس شحن الرأس، ولا الإقناع برأي؛ إنما هي الدعوة إلى التفكير والتحليل لكل شيء؛ فنحن في العالم العربي نمرُّ الآن بمرحلة تحتاج منا إلى فحص وتمحيص لكل ما استقر في وجداننا من مُسلَّمات، تمهيدًا لإقرار العقلية العلمية، التي لا يمكن بغيرها أن يستيقظ عندنا الذهن، ويتوقَّد الفكر ويتألَّق العقل ليُلاحِق حضارة العصر.

ما هي البشرية؟

في جبل المقطم مغارة كان يسكنها جماعة من الدراويش أصحاب القلانس البُنِّية الطويلة ... يعيشون هناك عيشة النسك والعزلة، وإن كانوا في بعض الليالي يقيمون حفلات للذكر، يحضرها بعض الزوار، وتُسمع فيها الترانيم الدينية الجميلة، بمصاحبة الناي والدفوف ... ذهبت إلى هناك مرة برفقة بعض الأصدقاء؛ حيث استقبلنا هؤلاء الدراويش بالترحاب ... وأعجبني المكان، وهذا النوع من الحياة. كان ذلك منذ زمن طويل، ربما قبيل الحرب العالمية الثانية.

ولا أدري بعد ذلك ماذا حدث لهؤلاء الدراويش ... لم أَعُد أسمع عنهم خبرًا، وأغلب الظن أنهم رحلوا عن هذه المنطقة ... ونسيتُ أمرهم ... إلى أن قادتني قدمي أخيرًا إلى جبل المقطم ... فتذكرت تلك المغارة، واشتقت أن أراها ... وجعلت أبحث عنها ... ولم يكن الأمر سهلًا ... فقد تغيرت المعالم هناك ... ولكن ذلك لم يُضعِف مني العزم ... بل ضاعف من هِمَّتي وإصراري ... وجعلت أُوغِل في الجبل بحثًا عن المغارة ... حتى بعدت عن كل سكة مطروقة ... وأخيرًا صادفتني مغارة، ربما لم تكن هي بالذات تلك المغارة القديمة ... لكنها على كل حال اجتذبت اهتمامي، وأغرتني بدخولها والنظر في أرجائها ... كانت خالية خاوية موحشة ... والضوء فيها قليل ... لم أتبيَّن فيها ما يسترعي الانتباه، ما عدا حفرة في وسطها تكاد تشبه البئر، فتقدمت إليها لأُطل برأسي على ما بداخلها ... كانت بالفعل بئرًا عميقة، لا يُرى لها قرار، ولم يكن من الميسور التحقُّق مما إذا كانت تحوي ماءً بمجرد النظر ... كان لا بد أن أُلقي فيها حجرًا لأعرف ... ولكن الحجر سقط دون أن يُنبئ عن شيء، كأنما أُلقي في الهواء ... إنه إذن جُبٌّ عميق يبتلع الأشياء ابتلاعًا ... ومع ذلك خُيِّل

إليَّ أني أسمع صوتًا ينبعث من الأغوار ... إنه صوت ليس مميزًا ولا محددًا ... إنه أشبه بالتنفس ... تنفس طويل مستمر غير منقطع ... إنه ليس تنفس إنسان ... ولا يمكن أن يكون كذلك ... إذن، لمن يكون؟ ... ووجدت نفسي أصيح في البئر على الرغم مني: من أنت؟!

فسمعت صوتًا يرتفع من البئر: من أنت؟!

إنه إذن رجع الصدى ... صدى صوتي أنا ... وقد أعجبني هذا الصوت ... فقلَّما يُتاح للإنسان أن يستمع إلى صوته ... وهو عندما يتاح له ذلك فإنه يبدو له كأنه صوت شخص آخر ... وما تمالكت أن أبديت إعجابي قائلًا بصوت مرتفع: صوت جميل!

فجاءني الصوت من أعماق البئر يقول: شكرًا!

فارتعدت رعدة شديدة ... إنه ليس رجع الصدى بكلامي ... هذا كائن آخر موجود معي في هذا المكان ... وازداد خوفي لمجرد الفكرة ... وهممت أن أقفز خارج المغارة هربًا بجلدي، ولكن شيئًا جمَّدني في موقفي ... ومرَّت الخواطر سريعة في رأسي ... واستعدت الصوت الذي سمعته منذ قليل ... لقد قال «شكرًا»!

إنه إذن لا يريد بي شرًّا ... ولكن، هل خوفي هو من شر يمكن أن يلحقني؟ ... لا، إن الخوف هنا مختلف ... إنه ليس الشر ولا الضرر؛ فأنا عندما يواجهني عدو بمسدس أو بسكين، فإني بالطبع أخاف، ولكنه خوف للحظة، ثم لا ألبث أن يتركز اهتمامي في البحث عن الطريقة التي أدرأ بها الخطر. أما هذا الخوف فليس مصدره الخطر؛ فقد نخاف عندما نشعر بوجود امرأة رائعة الجمال لا تحمل لنا غير الابتسام والسلام، تظهر لنا بصورتها أو بصوتها أو بتنهُّداتها، أو بمجرد الإحساس بحضورها دون أن نعرف من أين جاءت، ويعجز عقلنا البشري عن تعليل سر وجودها واختفائها؛ فإن عجز العقل عن تعليل ما لا يتمشَّى مع منطقه كفيلٌ بأن يُحدث فينا هزَّة الخوف ... قلَّة من الناس من يستطيع العقل فيهم أن يستعيد ثباته بسرعة ويواصل التفكير الهادئ، ويُكيِّف منطقه مع الموقف غير المنطقي ... حاولت هذا الأمر العسير، وجمعت كل شجاعتي، وقلت بصوت لم أنجح في ستر الرعدة التي تهزُّ نبراته: هل أنت ... عفريت؟!

فجاء الصوت من البئر يقول: ما معنى عفريت؟!

قيلت في لهجة من البراءة والصدق توحي بالثقة والاطمئنان، فبادرت أقول: إذن فأنت روح من الأرواح!

فقال: فسِّر لي ماذا تقصد؟!

فقلت مفسرًا: روح أحد الموتى، أو جِنيٌّ من الجن، أو عفريت من العفاريت ... هذا كل ما نفسِّر به الكائنات الخفية.

فقال الصوت: لست كائنًا خفيًّا.

فصِحتُ به: إذن، فأنت آدمي.

– مع الأسف ... لست آدميًّا (جاءت في لهجة هادئة لا تخلو من سخرية طفيفة، ولكنها جعلتني أرتعد مرة أخرى ... ليس آدميًّا، وليس روحًا، ولا جنيًّا، ولا عفريتًا ... ماذا يكون إذن؟) وهل يهمك كثيرًا أن تعرف من أكون؟!

– بالطبع يهمني ... أليس من الضروري أن أعرف من الذي أُحادثه ويُحادثني؟!

– ربما كنت تحادث نفسك!

– نفسي؟! (بدا لي الأمر مستحيلًا ... إلا إذا كنت نائمًا أحلم أو مخمورًا أهذي ... وأنا واثق أني في تمام اليقظة وكامل الوعي.)

قال الصوت: إذن فليكن الأمر كما ترى أنت ... إذن، أنت تتحدث الآن مع غيرك.

– بكل تأكيد.

– ألم تستمع إلى بُرغوث يتحدث إليك؟

– بُرغوث؟!

– نعم، بُرغوث من البراغيث التي تسير وتقفز على جسمك.

– بُرغوث يتحدث إليَّ أنا؟!

– ويسألك من تكون.

– هذا شيء مُضحك!

– أجب ... إنه يسألك من تكون ... ماذا يكون جوابك؟

– جوابي لن يفيده ... لأنه لن يُدرك له معنًى.

– إذن كُفَّ عن سؤالي من أكون.

– ولكني لست بُرغوثًا!

الإنسان والبُرغوث

– أنت أضعف من البُرغوث قدرةً ... فهو بالنسبة إلى حجمه يستطيع أن يقفز قفزة تُعادِل قفزتك من الأرض إلى سطح عمارة من عشرين طابقًا ... فهل تستطيع أنت ذلك؟

– إني لا أقفز بجسمي ... بل بفكري.

– جواب مُقنع ... إذن، يمكن أن تُدرك بفكْرك ما لا يمكن أن تُدركه بجسمك ... وعلى ذلك، فمن الممكن أن أقول لك من أكون.

– وثِقْ أني سأفهمك.

– لنعد مرة أخرى إلى البُرغوث ... ما الذي يفعله البُرغوث؟ ... إنه يعيش على جسمك ... يستمد منه مادة حياته وغذائه ... يجد فيه الدفء والطعام، ويغرس في بشَرتك إبرته ويستخرج منها الدم ... أنت أيضًا تعيش على الأرض، وتجد فيها مادة حياتك وغذائك، وتغرس برِّيمتك في بشَرتها لتستخرج منها البترول.

– ما معنى ذلك؟!

– ألم تفهم بعد؟

– زِدْني فهمًا.

– إذا كنت أنت البُرغوث، فهناك الجسم الذي تعيش عليه ... أتعرف هذا الجسم؟

– بالطبع ... إنه كوكب الأرض.

– أنا كوكب الأرض.

– أنت؟!

– نعم أنا ... هل في هذا ما يُدهش؟!

– ولكنك تتكلم ... هل الكوكب يتكلم؟!

– ولِمَ لا؟ ... إنه كائن حي ... أتُنكِر أن الكوكب كائن حي؟ ... إنه يتحرك ويسير، وينجذب ويقاوم القوة الجاذبة التي تريد ابتلاعه ... ربما كان استغرابك هو لحديثي معك بلغتك البشرية، كما يستغرب البُرغوث لو حادثته أنت بلغته البُرغوثية ... ولكن دعك من مسألة اللغات المختلفة بين الكائنات ... هناك لغة واحدة مشتركة بين الموجودات جميعًا: هي الحياة؛ ذلك الجوهر والمظهر واللغة التي تجمع بين أكبر الكائنات من مجرات وسُدُم وأجرام، إلى أصغر الحشرات والفيروسات، إلى أضأل الجزيئات والإلكترونات ... الحياة واستمرارها هي لغة الجميع ... وكلٌّ يستخدم في التعبير عنها لهجته الخاصة النابعة من طبيعة تركيبه.

– إذن، لغتك الحقيقية باعتبارك كوكبًا ليست هي هذه اللغة التي أسمعها منك الآن.

– بالطبع لغتي شيء آخر ... إنها لا تقوم على الكلمة، ولكنها تقوم على الحركة ... لغتك أقوال ولغتي أفعال ... وإذا كنتُ أُخاطِبك الآن بلغتك الكلامية، فذلك لكي تستطيع

أن تفهم عني، وأن يدور بيننا حديث ... ولكن الحديث الذي يدور عادةً بين كوكب وكوكب في محيطنا — نحن معشر الكواكب والأجرام — إنما يقوم على سياسة تحركاتنا، وحساب المسافات التي بيننا، والأفلاك التي نسير فيها، والجاذبيات التي نتعرض لها، والإشعاعات التي تصل إلينا أو تصدر عنا، وغير ذلك من دقائق وتفصيلات قد لا يُدرك عقلك الآن أسرارها.

– إذن، أنت وغيرك من الكواكب أصحاب عقول ذكية، تفكر وتحسب.

– لا، إن العقل عندنا ليس مثل العقل عندكم ... عقول البشر هي عقول خاصة بهم وحدهم؛ لتلائم تركيبهم المادي والمعنوي، وظروف وجودهم بين كائنات أخرى أقوى منهم.

حيوان ضعيف الأسلحة

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن الإنسان هو حيوان ضعيف جدًّا بالقياس إلى غيره من الحيوانات والحشرات التي يعيش بينها؛ فليست له الأنياب والمخالب التي للضواري والكواسر، ولا السموم التي عند الحيَّات والعقارب، ولا الجناح القوي الذي للطير المهاجر من قارة إلى قارة، ولا القدرة المُعجِزة التي للسمك العابر من محيط إلى محيط ... إنه مُجرَّدٌ من القوة الذاتية التي تُبقيه حيًّا بين هذه المخلوقات بأسلحتها المُركَّبة فيها، وعندما أراد أن يعتمد على أعضائه، كغيره من الحيوان، للحصول على غذائه، لم تُسعفه هذه الأعضاء القاصرة؛ فليس له سيقان تلحق بالغزال، ولا عضلات تفتك بالجاموس، فهَدَتْه ضرورة الحياة إلى البحث عن بديل لأعضائه الضعيفة، ففكَّر في استخدام ناب ومخلب من قطع العظام والأحجار ... وكان هذا مبدأ اكتشاف قدرة جديدة عند هذا الحيوان الأعزل؛ قدرة التفكير الخلَّاق، الذي يبتكر له الأدوات البديلة التي تمكِّنه مما تعجز عنه أدواته العضوية الطبيعية. وبهذا الاكتشاف الخطير، أخذت تنمو في مخه خلايا معينة نموًّا مُطَّردًا، حتى أصبحت شبه عضلة جديدة، يمكن تسميتها عضلة التفكير، اعتمد عليها في صنع ما يحتاج إليه، وفي خلق ما حُرم منه ... وبها صنع بيدَيه الآلات التي تمدُّه بغذائه، والأسلحة التي تحميه من أعدائه، وخلق بنفسه أجنحة الطائر التي جُرِّد منها، وزعانف السمك السابح والغائص في الأعماق ... وهكذا استطاع هذا الحيوان الضعيف أن يعيش بين الأقوياء، بما أمكن لفكره النامي أن يُنتج له ما يحميه وما يُقوِّيه، وما يُغنيه عن عطاء الطبيعة ... وبانتقال هذا الحيوان من الطبيعي إلى الصناعي، انتقل إلى النوع الذي تُسمُّونه «الإنسان».

سلاحه العقل الخلَّاق

– إذن التفكير هو سلاح الإنسان الوحيد.

– نعم، التفكير الخلَّاق الذي يصنع له قوته.

– التفكير إذن قوة.

– بدون شك ... والقوة الوحيدة للإنسان.

– ولماذا الإنسان فقط؟!

– لأن الكائنات الأخرى لا تحتاج إليه ... إن طائرًا صغيرًا مثل السمانة، لها من قوة العضلات ما تُحرِّك به جناحًا يطير عبر قارتين وبحر واسع دون توقف ... قوة أكبر من قوة مُحرِّك طائرة صنعها الإنسان حتى الآن.

– إذن، التفكير الخلَّاق هو شيء خاص بالإنسان وحده.

– أعتقد ذلك ... إنه شيء إنساني بحت ... خلايا نَمَت في مخ الإنسان، كما قلت لك، لظروف خاصة به، حتى يستطيع أن يعيش ... قوة الحياة تدفع كل كائن إلى إيجاد وسيلته الضرورية لحياته ... والتفكير الخلَّاق هو الوسيلة الضرورية لحياة الإنسان، ولكنه لا ضرورة له عند الكائنات الأخرى.

– لقد كنت أظن التفكير هو نعمة الإنسان الكبرى!

– الحياة لا تعرف النعمة أو النقمة ... هذه ألفاظ إنسانية ... إن الحياة لا تعرف غير ضرورة الحياة. إن التفكير الخلَّاق قد خلق لكم فيما خلق لغات وتصورات ... ذلك تصوُّركم أن كل شيء على الأرض قد وُجِد من أجلكم.

– أوَليس هذا صحيحًا؟!

– لو كان البُرغوث يتصوَّر الأشياء مثل تصوُّركم، لظنَّ أن القميص الذي ترتديه إنما وُجِد ليحميه ... إن جسمك العاري المُعرَّض للشمس والهواء يَحُول دون استقرار البُرغوث على سطحه ليستمتع بشرب دمك؛ ففي قميصك إذن وقاية له وحماية، وله عندئذٍ الحق أن يعتقد أنك تلبس القميص من أجله ... أنا أيضًا لي قميص تسمونه أنتم «الغلاف الجوي»، وتتصوَّرون أنه وُجِد وقايةً لكم وحمايةً من الأشعة الكونية القاتلة.

– لماذا تحاول إقناعي بأن الفكر الذي أباهي به هو مجرد ضرورة حياة؟! ألم أستطع بالفكر والتفكير الخلَّاق أن أخرج عن جاذبيتك، أيها الكوكب، وأنت مصدر حياتي، لأكتشف الفضاء المجهول؟

– في هذا أيضًا ضرورة لحياتك ... فما دام الفكر الخلَّاق هو سلاح حياتك، فلا بد من شحذ هذا السلاح باستمرار، ولا بد لجهاز فكرك من العمل والحركة الدائمة؛ لأنه إذا

توقف جمد وصدِئ ... وعندئذٍ يُخشَى من ارتداده إلى الوراء في اتجاه المرحلة الأولى المتاخمة للحيوانية ... وبذلك يعود فيضعف عن مواجهة أقوياء الطبيعة. إن أقوى الضواري تقف صاغرةً أمام إنسان واحد يملك قوة الفكر ... ألم تُشاهد مُروِّض الوحوش في السيرك، كيف يقف وحده بفكره أمام صفٍّ من الأسود والنمور؟!

– صدقت في هذا ... حتى بين الإنسان وجنسه ... إن دولة صغيرة مثل هولندا، تعدادها سبعة ملايين نسمة، استطاعت أن تحكم عبر بحار ومحيطات شعبًا ضخمًا، تعداده أكثر من سبعين مليونًا؛ وذلك بامتيازها الفكري وحده.

– هذا سلاحكم وحدكم معشر الإنسان: الفكر.

– نعم ... والفكر الخلَّاق.

وأطرقت برأسي أتأمل في صمتٍ أشياء كثيرة طرأت على خاطري، وساد سكون في المكان ... وخشيتُ أن أُنهي حديثي مع الكوكب الأرضي عند هذا الحد فيضيع مني صوته ولا أملك استعادته بعد ذلك، فلزمت مكاني، حرصًا على استمرار المحادثة ... ثم جعلت أُرتِّب في رأسي ما أريد مناقشته فيه من مسائل.

المعرفة الإنسانية

وقطعت حبل الصمت قائلًا له: فهمت عنك أن كل موجود له طريقته الخاصة في الاحتفاظ بالحياة، تدفعه إليها قوة الحياة وضروراتها، وأن الإنسان كان حيوانًا ضعيفًا مَقضيًّا عليه بالفناء لو لم يوجه قوة الحياة إلى الوسائل التي يستطيع بها أن يقاوم ويعيش ... وهي ليست وسائل مباشرة ذاتية عضوية كاملة فيه، شأن غيره من الحيوانات الأخرى، ولكنها وسائل غير مباشرة، خارجة عن ذاته، يُنتجها هو بنفسه، ويصنعها عن طريق الآلة المُفكِّرة، اكتشفها ونمَّاها واعتمد عليها. كل هذا مفهوم، ولكن الإنسان ليس مجرد آلة مفكرة تُنتج له ما يحتاج إليه، حتى وإن وصلت هذه الآلة المفكرة إلى ما نسميه اليوم العلم النظري والتكنولوجيا التطبيقية. هناك مقومات أخرى للإنسان، واهتمامات يختص بها وحده دون الحيوان، مثل الأديان والفنون ... بماذا تفسر ذلك؟

فأجاب الكوكب بصوت عميق واضح: ولماذا تُفرِّق بين العلم والدين والفن؟ ... هذه كلها منتجات الفكر عندما بدأ يتحرك ويكتشف؛ فالإنسان الأول القريب من الحيوان، عندما انطلقت في رأسه الشرارة الأولى تكشف له عن شكِّه في كفاية أعضائه وعضلاته الطبيعية للقيام بالمهام المطلوبة، كان هذا الشك هو مبدأ الفكر العلمي النظري، وهداه هذا الفكر

العلمي الأول إلى فكرة الاستعانة بأدوات مصنوعة، ثم بدأ من هذه الفكرة إلى التطبيق العملي، وهو اختيار نوع من العظام أو الأحجار جعل ينحتها ويُهذِّبها بقطع أخرى صلبة حادة من الصخور ليصنع منها السكاكين والرماح، وبدأ هجومه وصيده للجاموس الوحشي الضخم والوعول الكبيرة، حتى إذا أوى إلى الكهف الذي يعيش فيه، خطر له أن يرسم على جدرانه بقطعة من الحجر شكل الجاموسة أو الوعل الذي طارده ... لماذا؟ ... ليزداد معرفةً به، عن طريق تحديد شكله، وخلق صورة له بيدَيه ... إن عادة خلق الأشياء بيدَيه قد أمتعته واستحوذت عليه ... وأصبحت صفة الخلْق من أميز صفات الإنسان، وأصبح يُوجِّه الآلة المفكرة إلى الخلْق الفني، ليُنمِّي مَلَكة التصور التي تُعِينه على الخلْق العلمي ... فكلما تطور العلم احتاج إلى طاقة من التصور ... وكلما تطور الفن استطاع أن يخلق ما لم تُوجِده الطبيعة من موجودات فيُثري الفكر بطاقات وإشعاعات من التصور والإيحاء والإلهام، وتصبح آلة الفكر البشري أقدر على الابتكار ... إن العلم والفن فرعان في شجرة المعرفة الإنسانية.

– وهل شجرة المعرفة هذه خاصة بالإنسان وحده؟

– بالتأكيد.

– ألا توجد كائنات أخرى تشارك الإنسان في شجرة المعرفة هذه؟!

– ماذا تقصد بالمعرفة؟ ... إذا كنت تقصد المعرفة العقلية الواعية التي يستوعبها عقل الإنسان وفكره، فهي إذن شيء خاص به؛ لأن طبيعة عقل الإنسان وظروف تركيب جهازه الفكري والضرورات التي دعت إليه وأدت إلى نموه وتطوره، لا يمكن أن توجد في كائن آخر، إلا إذا كانت له نفس الطبيعة، ومَرَّ بنفس الظروف.

– أوَلَا يوجد نوع آخر من المعرفة غير المعرفة الإنسانية؟

– بالطبع توجد أنواع أخرى ... ولكن لماذا تسأل عنها وأنت لا يمكن أن تُدركها؟ ... إن كل ما تُدركه لا بد أن يمر من خلال جهازك العقلي الإنساني ... وهذا الجهاز لا يُدرك ولا يقتنص إلا نوعًا خاصًّا من المعرفة ... وهو النوع الملائم لتركيب عقلك وفكرك.

– ولكني أستطيع أيضًا أن أدرك أشياء بدون أن تمر بجهاز عقلي وفكري ... أدركها بالحدس والإحساس.

– هذا صحيح ... وهذا ما يشاركك فيه الحيوان وبعض الحشرات ... الإدراك بالحس الخفي لما سوف يقع من نوازل وعواصف وزلازل ... ولكن هذا النوع من المعرفة كنت أكثر قدرةً عليه وامتلاكًا له في مرحلتك الأولى، يوم كنت أقرب إلى الحيوان.

– ولكني اليوم أُدرِك به الأسمى والأعظم ... أُدرِك به الله.

– نعم، الدين ... إنه أيضًا شيء إنساني.

– ماذا تعني؟

– أعني أن أي كائن آخر غير الإنسان لا يمكن أن يدرك شيئًا اسمه الدين ... فالإنسان الذي مارس الخلْق فهِم أن كل شيء لا بد له من خالق ... وهذا الفهم أراح عقله القَلِق المتسائل عن أصل وجوده ... لأن حركة العقل الإنساني لا بد أن تدور في مساحة لها بداية ونهاية.

– وهل تنكر أن الإنسان باكتشافه الدين قد اكتشف شيئًا ذا نفع عظيم؟

– ومن يُنكر ذلك؟! ... إن اكتشاف الدين قد حمى الإنسان من الرِّدَّة إلى الحيوانية ... فالإنسان عندما يعيش في جماعات فإنه يشبه القطيع، تتصادم فيه المصالح، وتتنازع الأغراض، ويظهر الشر بألوانه؛ فإذا استشرى فقد أكل الناس بعضهم بعضًا، وفَنِي الإنسان، وكان لا بد للخير من أن يوازن الشر ويقاوم طغيانه، وكانت تلك هي مهمة الدين في المجتمع.

– إذن الدين والعلم والفن هي اكتشافات إنسانية، وهي تُكوِّن الفروع في شجرة المعرفة عند الإنسان.

– طبعًا ... وبدونها يجهل الإنسان نفسه، ويغفل عن قدراته، ويَعمَى عن المحيط الذي يعيش فيه، والكائنات القوية التي حوله، وعندئذٍ يعود الحيوان الضعيف الذي لا يقوى على مواجهة الحياة، ولن يلبث حتى ينقرض.

– وهل تعتقد أن الإنسان يمكن أن ينقرض يومًا؟

– ممكن جدًّا ... كل كائن يمكن أن ينقرض، وقد انقرض فعلًا، كما انقرض حيوان ضخم مثل الدينوصور يوم سقط سلاحه، وضعفت مقاومته أمام القوى التي حوله تريد ابتلاعه ... وسلاح الإنسان الوحيد هو جهاز عقله المتحرك دائمًا بالفكر الخلَّاق.

– إذن، الخطر على الإنسان هو جمود عقله.

– بدون شك ... وتاريخ البشرية يشهد بذلك ... إن الحضارة وليدة العقل المتحرك المُبدع؛ فإذا تجمَّد هذا العقل وقفت الحضارة، وبوقوفها تأتي حضارة أخرى وليدة متحركة فتبتلعها.

– كل ما يجمد ويقف يتعرَّض إذن للابتلاع؟

– بالطبع ... حتى أنا؛ ذلك الكوكب الذي تعيش أنت على سطحه، لو توقفت عن الحركة أتَدري ماذا يحدث؟ أفقد توازني ولا أستطيع أن أقاوم جاذبية الشمس القوية، وسرعان ما تبتلعني.

الوجود والعدم

– أنت تتحرك وتداوم الحركة منذ أكثر من أربعة آلاف مليون سنة ... لماذا؟ ما هي الغاية؟ ما هو الهدف؟ ما آخرة ذلك؟

هذه أسئلة إنسانية لا معنى لها عندنا ... الإنسان وحده بجهازه العقلي القائم على مقاييس وأبعاد زمنية ومكانية محددة، يتصور كل شيء، ويبني كل شيء على أساس السبب والنتيجة، والبداية والغاية، والأول والآخر ... أما نحن فخارج كل ذلك ... كل شيء عندنا يتلخَّص في أمر واحد: الحياة والوجود.

– والعدم.

– أي عدم؟ ماذا تقصد بالعدم؟

– العدم ... انتهاء الوجود.

– الوجود لا ينتهي ... كلمة النهاية عندكم أنتم، وفي لغتكم أنتم لأسباب تتعلق بتركيب جهاز عقلكم، كما قلت لك.

– إذن، لا يوجد عدم؟

– بالضبط ... لأن وجود العدم معناه أنه دخل في الوجود ... لغتكم نفسها تُفضي إلى هذا المعنى ... قولكم إن العدم موجود يعني أنه داخل في نطاق الموجودات ... وما دام العدم عندك داخلًا في نطاق الوجود، فكيف تتحدَّث عن انتهاء الوجود؟

– هذا تلاعب بالألفاظ!

– إنها نفس لغتكم التي اخترعت هذه الكلمات التي لا معنى لها ... وعندما تريد هذه اللغة أن تفسِّر شيئًا عسيرًا، فإنها تقع في التناقض المضحك!

– نحن دائمًا نتحدث عن الوجود والعدم.

– خطأ ... لا يوجد غير الوجود.

– والموت إذن؟

– أي موت؟!

– أتنكر أيضًا وجود الموت؟!

– لا أعرف هذه الكلمة.

– هذا شيء عجيب!

– وضِّح لي ماذا تقصد بالموت؟

– افرض أن التعادل قد اختلَّ بينك وبين الشمس، ولم تستطع مقاومة طغيان قوتها وابتلعتك، ماذا يكون حالك؟ ... هل تعتبر نفسك حيًّا؟

– بالطبع ... إني حي دائمًا.

– في جوف الشمس؟!

– نعم، في جوف الشمس ... لن أكون بشكلي الحالي، ولكني بمادتي وطاقتي سأكون هناك ... لا موت ولا فناء للمادة والطاقة، ولكنها تحوُّلات وتداخلات وتغيُّرات في الأشكال والأوضاع دائمة الحركة لا تنتهي ... الحياة وجود دائم ... وكل موجود يتحرك، حتى ما تُسمُّونه أنتم الجَمَاد ... الحركة هي مظهر الحياة ومَخبرها ... والحياة هي حقيقة الوجود ... الحياة هي الحقيقة الوحيدة في الكون.

– تريد أن تُقنِعني أنه لا يوجد موت؟!

– في عُرْفي أنا لا أدري فيما تتحدث!

– نحن نعيش في كل يوم مع الموت ... ونرى الناس من حولنا في كل لحظة يموتون؛ من نعرف منهم ومن لا نعرف ... من نُحب ومن نكره.

– تقصد بالموت إذن تحوُّل الحياة من صورة إلى أخرى؟

– أقصد الموت بمعناه الذي أفهمه أنا.

– ما تقصده بالموت وما تفهمه هو الاختفاء الخارجي للحركة، والتغير الظاهري للأشكال التي اعتدتم أن تروا عليها الأحياء ... أليس الأمر كذلك؟

– بلى، ولكن المهم عندنا هو أن نرى الأحياء على الشكل والوضع والصورة التي اعتدنا أن نراهم عليها؛ فإذا تحوَّلوا إلى شيء آخَر فقد فقدوا عندنا كل المعنى.

– حقًّا ... تلك هي مشكلتكم!

– مشكلتنا؟!

– عالم المعاني الذي تُقيمه عقولكم!

– وكيف كنت تريد لجهازنا العقلي أن يعمل دون أن ينتج عالمًا للمعاني، يصنِّف فيه الأشياء، ويجعل لكل شيء اسمًا ومدلولًا ومعنًى؟!

– إذن دع هذا العالم المصنوع صُنْعًا في معملك العقلي يعمل في نطاق الأغراض البشرية المحدودة التي صُنِع من أجلها، ولا تحاول أن تُفسِّر به عالمًا أعظم وأكبر.

– أوَلم أفسِّر به وأكشف عن قوانين استطعت بها أن أخرج عن نطاق جاذبيتك وأنطلق إلى كوكب آخر؟!

– ما فعلتَه — أيها الإنسان — هو ما يفعله البُرغوث عندما يخرج من جسمك ويقفز مُنطلقًا إلى جسم شخص آخر على مقربة منك! ولكن البُرغوث لا يمكن أن ينطلق إلى جسم آخر في مدينة أخرى.

– لماذا تُشبِّهني دائمًا بالبرغوث؟

– لأنك أنت والبُرغوث سِيَّان، في نظر من ينظر إلى سطحي من عُلو شاهق ... ألم تنظر إلى الأرض وأنت مُحلِّق في طائرة على ارتفاع كبير؟ ... هل ترى الإنسان؟ ... قد ترى الجبال والبحار، وإذا ارتفعت أكثر فلن ترى غير السحب ... ويستوي عند ذلك في الرؤية البُرغوث والإنسان وجُحور الحيوان ومدن النمل ومدن القاهرة ولندن وباريس!

– هناك فرق بيني وبين البُرغوث ... هو أني أعرف ما هو البُرغوث، وهو لا يعرف من أنا الإنسان!

– هذا صحيح، ولكنه هو ليس في حاجةٍ إلى أن يعرف من أنت. أما أنت فمحتاج أن تعرف من هو؛ لأنك إذا جهلته فلن تستطيع حماية نفسك منه ومن استنزافه لدمك ... ولقد قلت لك منذ قليل، وحذارِ أن تنسى ما أقول ... وهو أن ضعفك بالنسبة إلى جسمك لن يجعلك تقاوم أعداءك إلا بسلاح المعرفة.

الوعي والشخصية

وغرقت مرة أخرى في صمت مؤقت، ألتقط الأنفاس وأرتِّب في رأسي بعض أسئلة، طار منها ما طار، بحكم اللَّهْفة والخشية من أن أفقد هذا الصوت وينتهي الحديث فجأةً لسبب أو لآخر، وأنا حريص على هذه الفرصة النادرة؛ محادثة كوكبنا الأرضي، الذي نحسبه جسمًا جامدًا وهو كائن حيٌّ، يتحرك ويصدر عنه كلام بصوت لا تسمعه آذاننا، وبلغةٍ لا تَعِيها أفهامنا ... ولكنه شاء اليوم أن يحادثني بلغتي التي أفهمها.

سألته: أريد الآن أن أعرف منك شيئًا يتعلق بك ... بصلتك بزملائك الكواكب الأخرى القريبة إليك ... لقد كنت تتحدث عن البُرغوث الذي يسير على جسمي ... هذا البُرغوث لا يعرف بالطبع شيئًا عن زملائي القريبين مني، ولكني أنا أريد أن أعرف، ما دام الفرق بيني وبين البُرغوث، كما تقول، هو حاجتي الدائمة إلى المعرفة.

– ما الذي تستطيع أنت أن تفهمه من ذلك؟ ... كل ما يمكنني قوله لك هو أن صلتي بزملائي الكواكب الأخرى محسوبة بدقة؛ حتى لا يحدث بيننا تصادم.

– عجبًا! ... ولماذا يحدث بيننا نحن البشر في كثير من الأحيان تصادم؟

– أوَتُقارن عقولكم بعقولنا؟!

– وهل لكم عقول؟!

– لو كنا مجانين لوقع التصادم بيننا في كل لحظة، ولما استطعت الحياة أنت وغيرك من الأحياء.

– لا شك أن عقولكم من طراز آخر غير عقولنا البشرية؟

– طبيعي.

– وهل هي عقول واعية؟

– كيف تكون واعية وهي من طراز آخر غير طراز عقولكم؟!

– وهل الوعي خاص بنا؟!

– طبعًا خاص بكم ... الوعي والعقل الواعي والشخصية الواعية المُدرِكة لذاتها، هذه مَلَكات إنسانية ... كان لا بد أن تنشأ عند الإنسان وتنمو بنمو مَلَكة التفكير الإبداعي ... وما دام الإنسان قد اضطُر إلى ممارسة الخلْق؛ لظروفه التي تحدَّثنا عنها، فلا بد أن يكون عقله واعيًا لما يخلق ويُبدع، وواعيًا بالضرورة لذاته المبدعة.

– هناك من الحيوان والحشرات ما يُبدع أيضًا ... هناك النحل مثلًا، الذي يصنع العسل داخل أشكال هندسية غاية في الدقة والجمال، فهل هو يملك العقل الواعي والشخصية الواعية؟

– لا ... لأن كل حيوان أو حشرة أو نبات يُبدع شيئًا أو شكلًا، إنما يصنع ذلك بأعضائه الطبيعية المغروزة فيه، وليس بواسطة أداة أو آلة يصنعها قبل ذلك في فكره ... ولو كان الإنسان قد أُعطي مَلَكة غريزية، كالنحل أو النمل، أو سلاحًا عضويًّا قويًّا كالأسد أو النمر، لَمَا احتاج إلى أن يخلق لنفسه الأدوات والآلات التي تُعينه على مواصلة الحياة، ولَمَا أدى ذلك إلى نمو العقل الواعي والشخصية الواعية.

– صدقت ... هناك بالفعل فرق بين إبداع الغريزة وإبداع العقل الواعي. إن النحل عندما يُبدع الأشكال الهندسية لا يُعجَب بها، ولا يَعِي أنه أبدع شيئًا جميلًا ... أليس كذلك؟

– حقًّا.

– إنه آلة غريزية حية، تُنتج الجمال، كآلة النسيج التي تُنتج قماشًا ذا رسوم جميلة ... هل آلة النسيج تُعجَب أو تحكم على ما تُنتج؟! ... لا بالطبع ... أما نحن البشر فنتأمل ونُعجَب ونُقدِّر ونحكم ... لأننا لسنا آلات، بل نحن نصنع الآلات.

– بالضبط ... وهكذا وُجِد عندكم العقل الواعي، ووُلِدت الشخصية الواعية.

– وهذا أهم ما عندنا ... وأثمن كنز للإنسان ... هذا العقل الواعي الخلَّاق وهذه الشخصية الواعية المُدرِكة ... وعندما نفقد ذلك، نفقد كل شيء، ونعتبر أنفسنا في غيبوبة الموت.

– ولكنكم تبالغون عندما تظنون أن كل الكائنات العُليا كائنات عاقلة ... هذا النوع من العقل!

– أوَيمكن وجود كائنات عُليا راقية بدون العقل الواعي؟!

– ولِمَ لا؟

– هذا شيء لا يمكن تصوُّره.

– بالطبع ... لأنك تتصوَّر بعقلك الواعي هذا ... وخارج نطاقه لا تستطيع أن تتصور شيئًا.

الكائنات الخفية

– ولكننا نستطيع تصوُّر كائنات خفية، يُقال إنها تحوم حولنا ولا نراها، ونفزع إذا شعرنا بوجودها؛ لأنها تصدم منطق أجهزتنا العقلية ... هل هي موجودة فعلًا؟ وهل هي تهتم بنا؟ وهل تتدخل في شئوننا؟

– لا عِلْم لي ... وهل تعلم أنت ما يدور في رأس بُرغوث في جسمك من أحلام وتخيُّلات؟!

– ولكنك تعرف — ولا شك — ما يعيش في جسمك من كائنات مرئية وخفية.

– وهل تعرف أنت كل الفيروسات الخفية التي تعيش في جسمك؟

– إني أحاول أن أعرفها ... أحاول أن أعرف كل شيء ... ولقد قلتها أنت وقررتها: المعرفة وحب المعرفة هما سلاحنا الوحيد.

– سلاحكم أنتم معشر الإنسان، الضعيف بأعضائه، ولكنه ليس سلاحنا نحن ... إن المعرفة عندنا مغروزة داخلنا، موضوعة في طاقة حركتنا ودقة مسارنا.

– إني لا أستبعد وجود فيروسات خفية في جسمي لم تُكتشف، فهل تستبعد أنت وجود كائنات خفية غير مرئية لنا نحن البشر؟ ... لقد سمعت كثيرًا عن أناس يُقسمون أنهم يعيشون مع بعض هذه الكائنات ... معيشة أخوة، أو معيشة زوجية.

– صدق ... والأمر لا يخلو من أحد فرضين: إما أن تكون هذه الكائنات موجودة بالفعل، وليس كل موجود يمكن أن تراه حَدَقات عيونكم ... ولا بد أن الكون زاخر بكائنات مختلفة قد لا تُرى بالعين البشرية ذات الطاقة المحدودة، وربما كان لبعضها نوع من العقل ليس خلَّاقًا، ولكنه مُدرِك ذكي، قد يتدخل بإرادة أو لا يتدخل في المصائر والمسارات والأفلاك الأخرى لبعض الأحياء ... كل هذا مُحتمل ... كل شيء مُحتمل في هذا الكون ... والكون أكبر من أن يكتفي بكم وحدكم!

– هذا فرض ... والفرض الآخر؟

– الفرض الآخر هو أن تكون هذه الكائنات الخفية، التي يُقسم لك البعض أنهم يعايشونها، ليست سوى كائنات مصنوعة صُنْعًا في مَعْمَل العقل البشري الخلَّاق ... إن قوة الخلْق التصوُّري عند فئة من الناس، تبلغ أحيانًا حَدَّ التجسيد الفعلي أمام أنظارهم لما يتصوَّرونه؛ فإذا بها عندهم حقيقة واقعة يؤمنون بها.

الإيمان والتفكير

– نعم، الإيمان ... وهذه مَلَكة أخرى من مَلَكات الإنسان، ينبغي ألَّا نُغفلها ... إنه سلاح آخر يُقوِّيه في بعض المواقف والأحيان.

– أصبت ... الإيمان قوة دَفْع وإصرار في مجال العمل ليس عند الإنسان وحده.

– أتريد أن تقول إن الحيوان يعرف الإيمان؟!

– الحيوان لا يعرف شيئًا بالمعنى لكلمة «المعرفة» ... إن المعرفة الواعية هي من خصائص الإنسان وحده كما قلنا ... وغير الإنسان، المعرفة عنده مغروزة في داخله، يمارسها دون حاجة إلى الوعي؛ فالأعمال الشاقة التي يقوم بها النمل في بناء بيوته وتخزين طعامه وتصفيف جيوشه ومثابرته العجيبة وإصراره العنيف ... كل ذلك وراءه — ولا شك — قوة دافعة مُصِرَّة تشبه قوة الإيمان.

– ولكني أتكلم عن إيمان العقيدة.

– هذا إذن تجده عند الإنسان وحده ... لأن العقيدة أساسها الفكرة، والفكر الواعي، وأكررها لك، مَلَكة بشرية بحتة ... والإيمان بعقيدة في مجال العمل والممارسة الفعلية.

– تعني بذلك أن الإيمان مُقترن بالعمل؟

– طبعًا ... لأنه قبل العمل لا يكون هناك غير التفكير.

– إذن، التفكير سابق على الإيمان؟

– بالضرورة ... لأن التفكير سابق على العمل ... إنك تفكر قبل أن تعمل ... إن العمل هو مرحلة التنفيذ التي تمهِّد لها مرحلة التفكير ... والتفكير مُتحرِّك ... لأنك تُقلِّب فيه كل وجوه الرأي، وتتحرك في مجال التقليب والبحث والتنقيب والتردُّد والشك، إلى أن تهتدي إلى الرأي الأخير، والقرار النهائي الذي يجب أن يُعتنق، وعندئذٍ يُوضع مَوضع التنفيذ ... فالتفكير هو حركة الشك، والعمل هو ثبات اليقين، والإيمان هو قوة الثبات والدفع والإصرار على التحقيق العملي ليقين العقيدة.

– هذا صحيح؛ فكل الأديان قد بدأت بمرحلة الشك في العقائد السابقة والتفكير في دِين جديد. وبعد مرحلة الشك والتفكير، جاءت مرحلة الاعتناق للعقيدة الجديدة والدعوة لها والعمل من أجلها؛ أي مرحلة الإيمان.

– لعلَّك تلاحظ أن الإيمان — أي قوة الإصرار على العمل — إذا كانت قد وُجِدت عند الحيوان والحشرات، فإن الشك — أي التفكير في التغيير — شيء خاص بالإنسان وحده؛ ولذلك لا توجد تغييرات في حياة الحيوان ... فهو يعيش في مجتمعات ثابتة جامدة لا تعرف التطور.

– ولعل من رأيك أيضًا أن الحيوانات والحشرات ليست في حاجة إلى التطور الاجتماعي، وإلا كانت قوة الحياة دفعتها إليه.

– فعلًا ... وأمامك مجتمع النمل ومملكة النحل ... ما من تغييرات حدثت فيهما منذ الأزل ... ولا أحسبك تتوقع أن تنقلب مملكة النحل إلى جمهورية ومجتمع النمل إلى مَلَكية!

– ربما ليست لديها مُشكلات اجتماعية تدعو إلى ذلك!

– إن قوة الحياة الكامنة فيها والمغروزة في تركيبها هي التي تحل لها مُشكلاتها ... أما عند الإنسان فإن قوة الحياة تُلقِي مسئولية مشكلاته على عضلته الخاصة الجديدة، التي تُسمَّى العقل الواعي، وعلى جهاز فكره المتحرِّك.

مسئولية الفكر

– حقًّا ... إن مسئولية الفكر الإنساني جسيمة!

– وحركة هذا الفكر المستمر هي فرصة الإنسان الوحيدة في الحياة.

–ولهذا تُقاس قيمة الأفراد والشعوب وقوتها بمقدار حركة الفكر فيها.

– هذا صحيح ... ولهذا تختفي حضارات وتظهر حضارات، تبعًا لجمود الفكر أو تحرُّكه.

– تقول: تختفي؟ ... أين تختفي؟

– أقصد تُبتلَع ... لا شيء يختفي نهائيًّا أو يزول ... ولكن كل شيء، ومنها الحضارات، إذا ضعفت وجمدت ابتلعتها حضارة أسرع حركةً وأقوى مَعِدةً، فتهضم ما عندها من كنوز، ولا تُبقيها إلا نُفاية، وتتقدم هي مُتورِّدة سمينة مُزدهرة لتحمل عنها مِشعل القوة الإنسانية.

– أليست كل حركة مقترنة بالاتجاه؟ ... فما هو الاتجاه المطلوب لحركة التفكير؟

– الاتجاه إلى الأمام طبعًا ... أي التقدم بالإنسان في طريق التطور إلى الأقوى والأفضل ... لأن الاتجاه إلى الخلف هو رجعة إلى موضع سابق مرَّ به الإنسان وتركه، سائرًا مع الزمن المتغير والعصور المتلاحقة ... ولا يمكن للغد أن يصبح الأمس، إلا إذا انقلبت دورة القمر من حولي ودورتي أنا أيضًا.

– ألا يمكن أن يكون في ماضي الإنسان شيء ذو قيمة يُرى من الأفضل له استعادته؟

– هذا شيء آخر ... هناك فرق بين الإنسان الراكب في قطار الزمن والعصر، ويريد أن يرجع بقطاره كله إلى محطة سابقة يمكث فيها، وبين الإنسان الذي يستعيد من هذه المحطة الشيء ذا القيمة، وينفض عنه ترابه ويُصلحه وينتفع به وهو سائر بقطار الزمن والعصر في اتجاه المحطات التالية المتقدمة.

– ما دمت قد ذكرت القطار، فإلى أي مدًى يستطيع أن يسير إلى الأمام؟

– لا أدري ... كل ما أعرف هو أنه سيظل يسير ويتحرك بحركة الفكر الخلَّاق؛ هذا الوقود الضروري لتشغيل عجلاته ... فإذا نفِد هذا الوقود وقف.

– إنها لكارثة هذا الوقوف!

– ما دام هناك وقود يدفع العجلات، فلا خوف.

– وكيف نأتي بهذا الوقود؟!

– إنه يَنبت في البيئة الصالحة والمناخ الملائم.

– مثل كل نبات طيب.

– نعم، بالضبط ... ومثل كل نبات طيب يحتاج في نموه وازدهاره إلى الهواء الطلق، وإلى ضوء الشمس.

الهواء والنور

– وهل هو يَنبت من تلقاء نفسه، أو يُزرع زرعًا؟

– قد يَنبت من تلقاء نفسه إذا تُرِك حرًّا ... ويُزرع زرعًا إذا وُجد من يزرعه، ويأتي له بخير البذور ويُسمِّده بخير السماد، ويراعيه ويَسخو عليه في الإنفاق ... وأهم من كل ذلك ألَّا يسد عليه منفذ الهواء والنور.

– البذور والهواء والنور؟ ... أتظن هذه أشياء من السهل توفُّرها في كل حين؟!

– ولم لا؟

– هناك ظروف وموانع تمنع.

– تمنع ماذا؟!

– الهواء والنور!

– وما هي هذه الموانع؟

– أولًا ...

– نعم، أولًا ...؟

– لا ... لا داعي.

– تكلَّم.

– كفاية ... أظن أنك تعبت من طول الحديث ... والوقت مُتأخر ... ويَحسُن أن تسمح لي بالانصراف.

– على كل حال لقد سعدت بمعرفتك.

– بمعرفة بُرغوث على سطحك!

– أوَلا يُسعدك أنت أيضًا الحديث مع بُرغوث على جسمك؟!

– وأي سعادة! ... لو وجدتُ البُرغوث الذي يحدِّثني عن همومه ومشكلاته بلغة أفهمها، لقدَّمت له دَمي وأنا مُغتبِط راضي النفس.

– أنا أيضًا أُقدِّم لكم، عن غير معرفة شخصية، دمي وكنوزي من بترول وذهب وماس وثمار ... ولا أسألكم شيئًا غير توزيعها بينكم بالعدل، بلا ظلم ولا طغيان ولا عدوان!

– شكرًا على هذا الحديث ... وأَمَلي أن أحضر هنا مرة أخرى، وأحظى بسماع صوتك، والانتفاع بآرائك.

– إني في انتظارك دائمًا.

– إلى اللقاء إذن.

ما هي الحقيقة؟

لم يكن في نيتي أن أعود سريعًا إلى مغارة المقطم لأُحادِث مرة أخرى ذلك الصوت المنبعث من أعماق الأرض أو من أعماقي، ولكن حدث ما دفعني إلى الإسراع بالعودة إلى هناك ... فقد شاءت الظروف أن ألتقي بزميل قديم كان يعمل مُساعدًا لي في أيام اشتغالي بالقضاء منذ أكثر من أربعين عامًا ... كان شابًّا على خُلُق قويم، نقي الضمير، يُقدِّس الواجب ولا يتهاون فيه، وكنا نثق فيه كل الثقة، ونعتمد عليه كل الاعتماد ... ما من قضية تناولها بالتحقيق إلا وغاص في أغوار أسرارها، لا يستريح له بال حتى يكشف عن حقيقتها ... كنا نجد فيه المحقق المثالي ... وجاءنا ذات يوم وهو فرِح سعيد بعد إجازة قصيرة قضاها في القاهرة؛ فلقد كنا نعمل في إقليم من أقاليم الريف ... قال لنا إنه مُوشِك على الزواج؛ فقد خَطَبت له أسرته فتاة جميلة مُهذَّبة من أسرة طيبة تعرفها والدته، فاغتبطنا له، وصرنا نُشجِّعه على أن يذهب إلى القاهرة كل أسبوع، وننزل له عن بعض حقنا في الإجازات وهو يتعفَّف ويرفض ويُصر على القيام بواجبه كاملًا وعدم ترك عمله إلا في إجازته المستحقَّة، وكنا نستحثُّه على الحديث عن خطيبته فكان يُجيب بالكلام اللائق المناسب ولا يزيد، وعرفنا أنه يراها الرؤية المسموح بها في ذلك الوقت، وفي حضور مَحرَم، ولم يخرج بها قط لنُزهة؛ لا بمفردهما ولا بمصاحبة أحد من أهلها ... واقترب موعد الزفاف فقال أحد الزملاء الماجنين إنه يخشى عليه من عواقب تلك الليلة ... فهو شاب مُهذَّب وعروسه فتاة مُهذَّبة ... وهذا التهذيب كله لا بد أن يذوب دفعة واحدة في هذه الليلة الخطيرة: ليلة الدخلة ... فماذا هو فاعل؟ ... وهو فيما يبدو لم يمارس قط تجربة تدعو إلى الاطمئنان ... واقترح عليه هذا الزميل الماجِن أن يذهب به إلى مكان سري يلتقي فيه بامرأة من النساء العابرات المُتردِّدات على تلك الأمكنة لمثل هذه الأغراض، فاستنكر الشاب المُهذَّب هذا الاقتراح، ولكن الزميل

المُجرِّب ظل به يُقنعه ويُزيِّن له فوائد هذه التجربة البسيطة في هذا الظرف الدقيق من حياته، ويؤكد له أنه لن يخسر شيئًا بهذه الزيارة القصيرة؛ فالمكان مأمون، ولن يكون فيه غيرهما وغير امرأتَين تُستجلَبان خصوصًا لهذا الموعد، حسب التدبير الذي سيتولاه بنفسه مع صاحبة المكان، وهي خيَّاطة رومية أعدَّت شقة مُجاورة لعملها تُباشر فيها المواعيد مع زبائن محدودين في إطار الحفظ والصون. واستجاب الشاب أخيرًا، وذهب مع الزميل المُجرِّب إلى شقة الخيَّاطة، ودخل إلى قاعة جانبية فيها فراش وثير، وعلى نوافذها ستائر مسدولة من المخمل الأحمر السميك، وعلى أريكة في الصدر جلست امرأة عارية الكتفَين، ما كاد يراها حتى صُعِق ... إنها خطيبته المهذَّبة! وخرج هائمًا على وجهه في الطرقات، يكاد من هول الصدمة أن تدوسه العربات، ولم يتزوج بعدها أبدًا ... ولم نرَه نحن بعد ذلك أبدًا ... فقد طلب نقله إلى أقصى الصعيد، ولم ألتقِ به إلا أخيرًا، وقد شاخ وتقاعد بعد حياة طويلة في وظائف القضاء. اعترضني وأنا سائر في الطريق كما أفعل كل صباح، وحيَّاني وذكَّرني بنفسه، ثم استأذن بأسلوبه المُهذَّب الذي عرفناه منه قديمًا في أن يُلقي عليَّ سؤالًا.

قلت له: تفضَّل ... ما هو السؤال؟

قال: ما هي الحقيقة؟

دُهِشت لسؤاله ولم أتوقعه ... ولاحَظ دهشتي، ولعله لاحَظ أيضًا شيئًا من التبرُّم الخفي، فمثل هذه الأسئلة المطلقة في موضوعات فكرية مُجرَّدة، ليس مما يُغري بالحديث إلا في نِطاق المُحاورات والمُناقشات داخل جلسات الأدب والفكر، وليس مما يُتحدَّث به في مقابلة عابرة في الشوارع والطرقات ... وأدرك هو ذلك فبادر يقول: أتسمح لي أن أقص عليك الدافع إلى هذا السؤال؟

قلت: بالطبع ... لا بد أن يكون له من دافع.

قال: إنها قصة قديمة ... أو على الأصح هو سِرٌّ لم أَبُح به لأحد منذ نحو ثُلث قرن، وهو يُثقِل صدري. وعلى مدى هذه الأعوام الطويلة وأنا أعيش مع هذا السر الدفين، وليس في المقدور أن أفعل معه شيئًا سوى أن أُردِّد دائمًا بين جدران نفسي هذه العبارة: ما هي الحقيقة؟ ما هي الحقيقة؟ هل يتسع صبرك ووقتك لسماع سرِّي؟!

واشتقت إلى معرفة هذا السر الذي عاش معه هذه الأعوام الطويلة ولم أُطِق صبرًا على تأجيل الحديث حتى نتخذ لنا مجلسًا ... وكنا نمشي على كورنيش النيل، فأخذت أتمهَّل في المسير معه حينًا وأتوقف به في السير حينًا، وقد دعوته إلى الكلام، فروى لي هذه القصة العجيبة: إنه في ذات يوم منذ نحو ثلاثين عامًا، وكان قد نُقِل إلى القاهرة وكيلًا للنيابة

فيها، تُوفِّيت والدته، ولم يكن يقطن معها ... كانت تعيش في بيتها ... بيت الأسرة الكبيرة مع زوجها الأخير؛ فوالده كان قد تُوفِّي منذ وقت مُبكِّر وهو طالب في الحقوق، وقبل أن يلتحق بالوظيفة؛ أي قبل أن أعرفه مُساعدًا لي ... في ذلك الوقت كانت والدته قد تزوجت بعد أبيه ... فهي لم تترمل إلا لمدة عام واحد ... ولَبِثت مع زوجها الثاني خمسة أعوام ... كان من أعيان الريف المُوسِرين، رجلًا قويًّا مَهيبًا ... ولكنه أصيب في آخر الأمر بمَرض عُضال، فلم تُطِق صبرًا على تمريضه طويلًا، فتغيَّرت نحوه، وانتهى بها الحال إلى أن طلبت منه الطلاق فطلَّقها ... وأُبرِئ من مرضه بعد ذلك، ولكنها لم تَعُد إليه، وعاشت مع ابنها في بيت الأسرة، وكانت أعماله تقتضي أن يتردَّد عليه في البيت كاتب التحقيق يحمل إليه ملفات القضايا، وكان شابًّا وسيمًا متأنِّقًا لَبِق الحديث، ممن يُطلق عليهم بين عامة الناس وصف «الداير الملحلح» ... فما يشعر الابن ذات يوم إلا وقد اتفقت أمه مع كاتب تحقيقه على الزواج، ولَمَّا ناقشها الابن في مظهر هذا الزواج وبيَّن لها ما فيه من عدم لياقة، فزواجها من مرءوسه الذي يعمل تحت سلطته فيه إحراج له، كما أن فارق السن بينهما كبير؛ فهو يكاد يُماثل ابنها سِنًّا إن لم يكن أصغر، فلم تستمع إلى هذه الاعتبارات، وأصرَّت على هذا الزواج، وقامت بإتمامه فعلًا، ولم يجد الابن أمامه إلا أن يترك هذا البيت ويقيم بمفرده في بنسيون ... ولو كان أخوه الأكبر في القاهرة لأقام معه، ولكن الأخ الأكبر الوحيد الذي له كان طبيبًا مستقرًّا في أسيوط، تزوج هناك منذ كان مُفتشًا للصحة في مركز من مراكز الريف في الصعيد، وخرج من خدمة الحكومة وأنشأ عيادة خاصة وأنجب أطفالًا أدخلهم مدارس تلك المدينة، ولم تَعُد له بالقاهرة صلة تُذكر، ولم يكن يرى أخاه هذا وأسرته إلا في الأعياد والإجازات. أما والدته فكان يتصل بها عن طريق التليفون، وفي أحيان كثيرة كانت تزوره هي في البنسيون، تحاشيًا من اللقاء في البيت. أما زوجها الشاب فلم يره منذ عقد القران؛ فقد طلب نقله إلى نيابة أخرى، وفَهِم رئيسه النائب العام ظرفه الخاص وحرجه مع كاتب نيابته، فنقله في دائرة القاهرة نفسها، ولكن في حي بعيد عن عمل زوج أمه، ولم يدخل بيتها إلا يوم وفاتها ... تلقى الخبر بالتليفون من زوجها، فذهب على الفور إلى ذلك البيت؛ بيت الأسرة الذي نشأ فيه صغيرًا هو وأخوه الأكبر، في كنف والد كثير الأسفار يعمل في المقاولات، ووالدة مُتبرِّمة على الدوام بغيابه، فاعتاد هو وأخوه على أن يعتمد كلٌّ منهما على نفسه ... لم يجد في ذلك البيت شيئًا تغيَّر، إلا بعض ملابس ذلك الزوج الثالث مُعلَّقة على شمَّاعة في حجرة النوم ... ولمح فوق السرير جثمان والدته وقد غُطِّي بملاءة بيضاء ... وسأل عن أخيه الأكبر، فقيل له إنه قد أُرسِلت إليه برقية في أسيوط، ولم يلبث أن وجد

البيت قد امتلأ بنساء لا يدري من أين جئن، وبين وقت وآخَر ينطلق صوت عويل حاد، ثم صوت ندَّابة، يتبعه صوات متقطع لمجموعة كأنها بِطانة نَدْب مُحترفة ... أما الزوج، فكان يسير هنا وهناك والدموع تجري على خدَّيه، منديله في يده يجفِّف به العَبَرات مع الزَّفَرات، وعجائز النسوة من حوله يقلن له: «شد حيلك يا بني» ... أما ابن المتوفاة، فكان كالغريب في ذلك المكان ... فقد كان مسيطرًا على مشاعره، غير مستطيع أن يُكيِّف وضعه، وبدا كأنه في حاجة إلى وجود أخيه ليُعيد إليه الإحساس بكيان الأسرة. ولم يلبث الأخ الأكبر أن وصل، وجعل يسأل أسئلة سريعة مُتلاحقة عن وقت الوفاة وموعد الجنازة ونشْر النَّعي ومكان تقبُّل العزاء ومدفن الأسرة ونحو ذلك من الإجراءات، وكان الزوج يُجيب على ذلك كله وهو يشهق بالبكاء، قائلًا: إن كل ذلك قد تم إنجازه، ما عدا النشر في الصحف؛ فإنه انتظرهما لبيان أسماء الأسرة كاملةً، وجعل الابن الأكبر يُملِي عليه، ويتبادلان الرأي في كل شيء، دون أن يبدو عليهما أي حرج كذلك الحرج القائم بين وكيل النيابة وكاتبه ... وقد أراح ذلك الابن الأصغر، فترك كل شيء لأخيه الطبيب ... وتمت الترتيبات بسرعة، ونُصِب الصوان أمام البيت، وظهر النعي في الصحف، وأقبل المُعزُّون واصطفُّوا في الكراسي، ودار الفرَّاشون بالقهوة السادة، وجعل الحانوتية يُعِدون الخشبة، بينما الجُثمان المُسجَّى على الفراش لم يزل مغطًّى بالملاءة البيضاء، في انتظار نقله للغُسل. وجاء من النسوة مَن يسأل الأخوَين إذا كانا يريدان إلقاء نظرة على أمهما ... فأقبل الابن الأكبر الطبيب ورفع الغطاء عن الجُثمان بتُؤدَة، ونظر في وجه والدته، ثم عاود النظر في اقتراب مدقِّقًا فاحصًا، وأخيرًا أعاد الغطاء إلى أصله، ورجع مُطرِقًا وأمسك بيد أخيه وكيل النيابة، وانتحى به جانبًا وأسرَّ في أذنه: أُمُّنا ماتت مقتولة!

– مقتولة؟!

لَفَظَها وكيل النيابة في همسة مرتاعة.

وأردف أخوه الطبيب قائلًا: مخنوقة.

– مخنوقة؟! ... أنت متأكد؟!

– طبعًا ... أنت نسيت أني كنت مفتِّش صحة؟! ... من اختصاصي فحص الجُثَث ... حتى قبل نظام الطب الشرعي!

– والعمل؟!

– والله ... شيء يُحيِّر.

– نُبلِّغ.

– معنى التبليغ أولًا تشريح الجثة ... وثانيًا التحقيق ... والتحقيق ربما جَرَّ للفضيحة.
– الفضيحة؟!
– أُمُّنا كانت مِزواجَة بشكل ربما يكون محل ...
– وخصوصًا زواجها الأخير.
– فعلًا، زواجها الأخير!
– لكن ... القاتل؟!
– يَحسُن أن نكتم هذا الموضوع، وندفن الجثة وقاتلها معها؛ صِيانةً لسمعة أُمِّنا وسمعة الأسرة، والله يرحمها ويغفر لها ويطهر روحها.

واتفق الأخوان على كتمان السر، وعدم إثارة هذا الموضوع؛ لا من بعيد ولا من قريب ... وذهب كلٌّ منهما في طريقه وانصرفا إلى شئون حياتهما، ونسيا الموضوع أو تناسياه ... على أن الأخ الأصغر وكيل النيابة لم يكفَّ لحظةً عن التفكير بينه وبين نفسه في هذا الأمر: مَن الذي خنقها؟ ولماذا؟ ... وجعل طوال الأعوام يُدير التحقيق داخل فكره، ويستعرض مَن تَحُوم حوله الشبهات ... أتُراه ذلك الزوج الأخير؟ ... فعل ذلك بدافع الطمع في ميراثها؟ ... ولكن ميراثها لم يكن بذي بال؛ فقد كانت مُسرِفة مِتلافة، وإذا كان قد بقي لها القليل الذي تُورِّثه، فقد زهد الزوج فيه، وأقبل على الأخوَين الوارثَين عند توزيع التركة وفي عينَيه أسًى، وفي صوته تهدُّج، يُعلن إليهما أنه نزل لهما عن نصيبه، ولن يسمح لنفسه، وهو الدخيل، أن يرث شيئًا من تركة أمهما، وكان موقفًا كريمًا في نظر الأخ الطبيب ... ثم ما هي مصلحته في قتلها وقد كانت تغدق عليه من مالها إغداقًا، وتُئويه في بيتها، وكان هو الآمر الناهي في البيت، يتصرف في كل ما لديها التصرف المطلق ... أتُراه قد ملَّ عِشرة هذه العجوز وأراد التخلص منها؟ ولكن هذا ليس الحل ... فباب الطلاق مفتوح ... أو الهرب ... أو طلب النقل إلى وظيفة في أقصى البلاد ... وتعب من هذا التحقيق، وبدأ يسأل نفسه عن جدواه ... وافترض أنه اهتدى إلى القاتل، فهل يُسلِّمه إلى العدالة؟ ... لا بالطبع ... فقد انتهى الرأي من سنوات إلى كتمان هذه الجريمة؛ تَلافيًا للفضيحة، وصيانةً للسمعة ... إذن، وعلى فرض أنه عرف القاتل، هل يتولى هو بنفسه عقابه سرًّا بغير ضجة؟! ... هذا أيضًا لا يمكن أن يخطر بباله ... فهو من رجال القضاء، وعلى قدر كبير من الثقافة والتهذيب والتحضر، كيف يتصرَّف تصرُّف الجُهَلاء الذين يسلكون طريق الأخذ بالثأر في المجتمعات البدائية ... وهو الذي من عمله وواجبه أن يُفهِّم الناس احترام القانون؟! ... ثم هناك أكثر من ذلك: هناك شُعوره الداخلي الذي لا يحمل ضِغنًا ولا حِقدًا على القاتل؛ لأن

الجريمة أصبحت قديمة وبردت العواطف، ولا بد أن لسلوك أُمِّهما الشخصي نصيبًا فيما حدث ... وهو لا ينسى لها أنها أوقعته، فيما مضى بسوء اختيارها، في تلك العروس التي ضبطها في المكان المشبوه ... ثم شيء آخر، هو أن الجريمة نفسها لم يَعُد لها وجود في نظر القانون، بعد أن مضى عليها نحو ثلاثين عامًا ... ومَن يُدريه أن القاتل نفسه حي؟! ... لعله أصبح هو الآخر من الأموات، وأنه مدفون الساعة في مقبرة، ويزورها أهله وذووه ويترحمون عليه وينثرون الزهور ... ما معنى إذن هذا التفكير المستمر، وهذا التشوُّق الدائم إلى كشف السر؟ ... إنه لا يتصوَّر أن يموت ذات يوم دون أن يعرف حقيقة هذا الأمر ... لماذا؟ لماذا يريد ذلك وهو يُوقن أنه لن يجني شيئًا من ورائه؟! أتُرى معرفة الحقيقة ضرورة في ذاتها؟ لكن ما هي الحقيقة؟!

وعندما انتهى زميلي القديم من قصته إلى هذا السؤال، كنت أنا قد بدأت التفكير معه والبحث عن الجواب ... ولكن التسرُّع والإسراع بأي إجابة ليس مما ينبغي، وخاصةً في أمر كهذا، ومع رجل كهذا ... واستمهلتُه ورجوتُه أن يمر عليَّ في مكتبي بعد أيام ... وانصرفنا ... وخلوتُ إلى نفسي ... وعندئذٍ تذكرت مغارة المقطم، وقلت لعل حديثي مع ذلك الصوت المنبعث هناك؛ صوت الكوكب، ومحاورتي معه مما قد يُنير لنا السبيل.

ما هي الحقيقة؟

دخلت المغارة، واتجهت قُدمًا إلى وَسَطها؛ حيث البئر العميقة، ومِلت برأسي أُطِلُّ وأصيح: ها أنا ذا قد جئت.

– أهلًا وسهلًا ... كنت أتوقَّع عودتك (قالها الصوت بنبرته التي عرفتها).

وسألته في شيء من الدهشة: كنت تتوقع عودتي؟!

– طبعًا ... من حديثنا السابق أدركت أن مُشكلاتكم لن تنتهي!

– هذا صحيح ... ما دمنا ذلك النوع العجيب المُسمَّى الإنسان، فنحن نفرز مشكلاتنا كما تفرز العقارب سمومها.

– ولماذا العقارب؟!

– لأن العقرب تُؤذي نفسها أحيانًا بالسم الذي تفرزه.

– نعم ... ولكن العقرب تُولَد وسُمُّها فيها ... أما أنت أيها الإنسان، فتُولَد نقيًّا صافيًا، ثم تصنع أنت بيدك سُمومك، ثم تعيش حياتك تبحث عن الترياق!

– حقًّا ... وهذه مصيبتنا.

– ما هي مشكلتك اليوم؟

– أريد أن أطرح عليك سؤالًا.

– تفضل!

– ما هي الحقيقة؟

– أي حقيقة؟ ... حقيقة ماذا؟

– الحقيقة ... ألا تعرف كلمة الحقيقة؟

– حدِّد معنى الكلمة ... أكثر الضلال يأتي عندكم من إطلاق كلمات كبيرة في الهواء، فارغة من المعاني المحددة ... إن الحيوان مشكلاته أقل تعقيدًا؛ لأن لغته أكثر تحديدًا ... إنه يحدد طلباته، ويحدد قدراته ... يلائم بين الطلبات والقدرات، ولا يطلب القفز أكثر مما تستطيع عضلاته ... تلك هي لغته ... كل شيء عنده محكوم بقانون السليقة، مدروس بدقة الغريزة ... لا لغو فيها ولا هزل ... قفزته محسوبة، وقلَّما تُخطئ ... ألم تنظر إلى قِطٍّ وهو يريد القفز من حائط إلى حائط ... إنه يدرس المسافة بينهما بعناية تامة، وكأنه يقيس قدرته قبل أن يَهُم بالقفز، ولا يُقدِم إلا وهو على ثقة من أنه سينجح ... وهو قَلَّما يُخطئ أو تَزِل قدمُه عنده بعد حاسَّة الحساب.

– الواقع أني لاحظت ذلك في القِطط.

– ليس في القِطط فقط ... في كل أنواع الحيوان والحشرات هذا التحديد الدقيق للقُدرة والرغبة ... وهو ما أُسمِّيه اللغة المحددة.

– ولماذا لا نَملك نحن مثل هذه اللغة؟

– لأنكم تصنعون لغتكم بأنفسكم من كلمات ... وهذه الكلمات مُختلفة الدلالات والمَدلولات ... وكل نوع من الناس يستعملها استعمالًا مختلفًا ... هل تعرف مثلًا معنى كلمة الخير وكلمة الشر؟

– الخير والشر؟ ... طبعًا هذا شيء معروف.

– لا ... ليس معروفًا بمعنًى واحد ... إنه عند الفلاسفة بمعنًى، وعند الأخلاقيين بمعنًى، وعند الشعراء بمعنًى ... وهَلُمَّ جَرًّا.

– كيف ذلك؟ ... إن الخير والشر هما الخير والشر.

– أنت إذن لم تقرأ فيلسوفكم ابن سينا.

– وهل قرأته أنت؟

– بالطبع ... لا بد أن أعرفه ما دمتُ قد عرفتُك وعرفتُ صِنف الموضوعات التي تحادثني فيها ... وأنت، ألا تفعل ذلك لو جاء بُرغوث على جسمك يُحادثك في موضوعات فكرية؟ ... ألا تحاول أن تعرف شيئًا عن فلاسفة البراغيث؟

– فلاسفة البراغيث؟!

– مثلًا ... مثلًا.

– ما علينا ... ماذا كنت تُريد أن تقول عن فيلسوفنا ابن سينا؟

– أردت أن أقول إنه يتحدث عن الخير والشر في الإلهيات، فتتخذ عنده كلمة الخير وكلمة الشر معاني وأبعادًا ليست مما يُطلَق في المجال العام، ولا مما يُستعمَل في الأخلاقيات أو المعاملات بين الناس ... وانظر إليه في كتابه «الشفاء»؛ حيث يقول: «فالخير بالجملة هو ما يتشوَّقه كل شيء في حدِّه، ويتم به وجوده، والشر لا ذات له، بل هو إما عدم جوهر أو عدم صلاح حال الجوهر ... فالوجود خيريَّة، وكما للوجود خيريَّة الوجود ... فإذن ليس الخير المحض إلا الواجب بذاته.»

– وما هو الضرر في أن تُستعمَل نفس الكلمات فيما هو أعلى، وفيما هو عام ... ما دام للإنسان ميزة الحياة في عالَمين: عالم السُّمُو في الإلهيات، وعالم الواقع في المعاملات؟

– لا ضرر ... ولكن على الإنسان أن يحدد المعنى عندما يستعمل الكلمات، وأن يتذكر دائمًا أن إطلاق الكلمات بغير تحديد هو الذي يؤدي إلى سوء الفهم بين الناس، وعندئذٍ لا يستطيع الناس أن يتفقوا على رأي، ما دامت لغة الكلمات بينهم قد اختلفت معانيها ومدلولاتها.

– فلنعد إلى معنى الحقيقة، حتى أستطيع أن أجيب ذلك الذي سألني عنها ... ويظهر من كلامك أن الصعوبة هي في تحديد مدلول الكلمة.

– فعلًا ... الصعوبة هي في اعتباركم الكلمة الواحدة مِثل الجوهر الفرد ... ولقد كنتم تعتقدون أن الذرَّة هي الجوهر الفرد، فإذا هي قابلة للتفتيت ... وعندما فُتِّتت الذرة كشفت عن عوالم خفية أثارت دهشتكم ... كذلك الكلمة الواحدة؛ قابلة للتفتيت والانقسام، وعندئذٍ تَكشِف عن مدلولات بعيدة الأثر.

– تقصِد أن الحقيقة قابلة للتفتيت والانقسام؟

– بدون شك.

– مثل الذرَّة إذن؟

– نعم ... والظاهر أن كل شيء في الوجود ينبع من نفس القانون ... التركيب هو نفس التركيب.

تركيب أجزاء الحقيقة

– فلنحاول إذن تفتيت هذا التركيب لما نُطلق عليه «الحقيقة».

– فلنتفق أولًا على أن المقصود بالحقيقة هو الحقيقة المحددة بعالم الإنسان ... أي الحقيقة في نظر البشر، وفي محيط حياتهم وحواسهم وقدرات أفهامهم وعقولهم وأرواحهم.

– طبعًا ... طبعًا ... لأن الحقيقة خارج مدارك البشر لا يدركها البشر.

– عندئذٍ ستجد أن كلمة الحقيقة، وكلمة السعادة، وكلمة الشقاء، وكل هذه الكلمات الكبيرة التي تُطلقها الأفواه، وتسطرها الأقلام بغير تحديد؛ إنما هي تركيبات عامة كتركيبات المجموعات الشمسية، وتركيبات الذرات ... فكلمة الحقيقة — مثلًا — هي مجموعة شمسية تَحتوي على شمس هي النواة وكواكب تدور حولها، وهي ذرة تحتوي على نواة وإلكترونات تدور حولها ... كذلك تركيب كلمة الحقيقة، تحتوي على نواة هي روح الحقيقة، وتدور حولها جملة حقائق، مثل: الحقيقة الدينية، والحقيقة العلمية، والحقيقة الفنية والأدبية، والحقيقة السياسية والاقتصادية ... وهكذا.

– فهمت ... ولذلك لا يمكن أن نَستغني بحقيقة واحدة من هذه الحقائق عن الأخرى، أو نرى وجودنا من خلال واحدة دون غيرها ... وإلَّا انطبق علينا المثَل المعروف عن أولئك العُميان الذين أرادوا معرفة فيل ضخم، فوقعت يد أحدهم على ذيله، فقال لأصحابه: إن هذا الفيل هو شيء رفيع قصير، ووقعت يد الثاني على أذنه، فقال: بل هو شيء كالمروحة، ولمس الثالث ساقه فأعلن أنه شيء كالعمود. أما الرابع فاصطدم ببطنه وصاح: لا، بل هو كالحائط ... وهَلُمَّ جرًّا.

– ولم يَزَل أكثر الناس مِثل هؤلاء العُميان؟

– نعم، مع الأسف.

– ولذلك كانت كلمة الحقيقة عند أكثر الناس هي أبعد الأشياء عن الحقيقة.

– هذا صحيح، ولكن هل الحقيقة في اكتمالها شيء بعيد دائمًا عن الإنسان؟ أو أن الإنسان المُبصِر يستطيع إدراكها كما يستطيع إدراك الفيل بكل حجمه؟

– وما قولك إذا كانت الحقيقة في اكتمالها أكبر حجمًا من الفيل، والإنسان أصغر حجمًا من النملة؟! في هذه الحالة لن يستطيع الإنسان أن يدرك سوى جزء ضئيل من قَدم الفيل.

– وماذا تقول في إدراك الإنسان لمجموعته الشمسية ولمجرَّته ولمجرَّات أخرى تبعد عنه ملايين السنين الضوئية؟

– ومَن أدراك أن كل هذا ليس أكثر من ذلك الجزء الضئيل من قَدَم الفيل؟!

– إذن، فلنحدد الحقيقة بما قلناه من أنها تلك التي يمكن أن تدخل في إطار المَدارك البشرية. وعلينا نحن البشر أن نعمل دائمًا بكل جُهدنا على توسيع هذا الإطار.

– وهذه هي رسالة وجودكم على الأرض ... أي فوق سطحي.

– نعم، ولكن توسيع إطار المعرفة لإدراك الحقيقة ليس بالأمر السهل. إنه يقتضي منا، كما ذكرنا، تفتيت جوهر الحقيقة إلى عناصرها، ثم استخدام المقياس الخاص بكل عنصر.

– وهذا ما قمتم به فعلًا؛ فالحقيقة العلمية تستخدمون لها مقياس الرؤية التجريبية، والحقيقة الفلسفية مقياس الرؤية الذهنية، والحقيقة الدينية مقياس الرؤية الروحية ... وهكذا، ولن يُعيدكم إلى رؤية العُميان للفيل إلا استخدام مقياس واحد لكل هذه الحقائق؛ لأن هذه الحقائق مختلفة في طبيعتها؛ فالحقيقة الدينية مثلًا كاملة بذاتها لأن العقيدة تُولَد تامَّة التكوين، والإيمان هو الإيمان، لا يقبل الزيادة أو النقصان. أما الحقيقة العلمية فهي مفتوحة دائمًا للإضافات الجديدة، وقابلة دائمًا للتعديل والتبديل، والتصحيح والتنقيح؛ فهي تُولَد غير مُكتملة التكوين، وتنمو باستمرار إلى غير حد معروف.

تصادم أجزاء الحقيقة

– ألا يمكن أن تتصادم أجزاء الحقيقة فيما بينها؟

– هذا أمر قليل الاحتمال. إن الكواكب في المجموعات الشمسية والمجرات والإلكترونات، كلٌّ منها يدور في فلَكه، ويعمل في تناسق وتعاون مع غيره، ولا يصطدم به ما دام يتحرك في نطاق فلَكه، ولا يدخل في فلَك غيره. وهذا هو الجوهر الأصيل فيه، ولكنَّ هناك نوعًا طفيليًّا بطبعه، يتسلَّق على الأنواع الأخرى، كما يحدث في عالم النبات، ويعيش عليها، ويمدُّ أطرافه من نوع إلى نوع، ويلفُّ سيقانه حول شجرة وشجرة أخرى، وهي أيضًا مثل المذنَّبات في عالم الأجرام ... مثال ذلك بعض أنواع الدراسات والفقهيات التي تنسج نشاطها العقلي حول الحقائق الأصيلة، وتمعن في شرحها وتفسيرها، وتُكبِّلها بحواشيها وذيولها، إلى أن تصبح هي الأخرى حقيقة مستقلة، لها مدارها الخاص، مثل المذنَّبات، تمسُّ الكواكب، وفي فهمها أو زعمها أنها تلقي عليها الضوء من تخريجاتها وتفصيلات بُحُوثها، ولكن غبار ذيولها الطويلة يحجب الحقيقة أحيانًا، ويُشوِّش بساطتها وصفاءها.

– معنى هذا أن الحقيقة يمكن أن تتولَّد عنها حقيقة أخرى صغيرة، تتعلق بها وتدور حولها كما يدور القمر حول الأرض؛ أي حولك؟!

– هذا أيضًا يحدث.

– إذن، التصادم بين أجزاء الحقيقة هو أمر خارج عن نظامها الطبيعي، وإذا حدث فإنه يحدث من جزء دخيل ومن حدث خارجي عن جوهرها الأصيل.

– بدون شك.

– وهل يمكن اعتبار هذا الجزء الخارجي مضادًّا للحقيقة؟

– إنه ليس كذلك، ولكن يمكن اعتباره شيئًا قائمًا بذاته، له شخصيته ... إنه بناء متين التكوين أحيانًا، رائع التركيب، أصبح هو نفسه حقيقة، مثل الحقيقة الفنية، أو الحقيقة الاقتصادية أو السياسية.

– الواقع أننا نرى أحيانًا في شرح بعض الشرَّاح لنصٍّ من النصوص، مسالك تطول وتتلوَّى وتتعرَّج وتتوه بنا عن روح النص الذي بدأت منه، كما نجد في نظريات بعض المتفقِّهين ما لا يمكن الاعتماد عليه كليةً في إدراك الحقيقة.

– إن الحقيقة أوسع وأعمق وأعظم من شرح الشرَّاح، ونقد النقَّاد، وأصحاب الدراسات، وواضعي النظريات.

– وما فائدتها إذن ما دمنا لا نستطيع رؤية الحقيقة كاملةً من خلال عيونها ونظراتها وحدها، وهي جميعًا متشابكة فيما بينها، ومتناقضة في أكثر الأحيان؟!

إنها — كما قلتُ لك — قد استطاعت بالعقول المتوقِّدة والمهارة الذكية والبراعة الجدلية، أن تصبح كيانًا منفصلًا وبناءً مستقلًّا ولونًا من ألوان المعرفة، وفرعًا من فروع الحقيقة الأصلية.

– أليس البُعد عن الحقيقة هو الكذب؟

– لا، مطلقًا ... لا يمكن اعتبار كل بُعد عن الحقيقة كذبًا. إن كلمة الكذب تحتاج هي الأخرى إلى تحديد دقيق، مثل تحديد كلمة الحقيقة.

– ولكننا نعرف لأول وهلة أن الكذب هو ضد الحقيقة ... أليس هذا من البديهيات؟

الكذب والحقيقة

– نعم، ليس كل ما يخالف الحقيقة هو من قبيل الكذب ... قد يكون من قبيل الجهل ... والكذب لا يكون عن جهلٍ بالحقيقة، بل عن علمٍ بها وتعمُّد إخفائها بإظهار ما يخالفها.

– لا بد إذن للكاذب من أن يكون عالِمًا بالحقيقة ويريد إخفاءها؟

– وحتى هذا لا يكون كافيًا لوصف الفعل بالكذب؛ فهناك من يعرف الحقيقة ويخفيها في صدره ... إنه ليس بالكاذب إلا إذا أعلنها متعمدًا بقول أو فعل يخالفها؛ أي أن يُظهر خلاف ما يُبطِن، ويقصد إبلاغ الآخرين ما يعرف أنه غير صحيح بدلًا من إبلاغهم ما يعرف أنه صحيح.

– إذن، المعرفة أساس الكذب؟

– بالضبط؛ لأن الجهل بالحقيقة وإظهار غيرها في صورة حقيقة لا يسمى بالكذب، ولكن يسمى بالاختلاق؛ أي خلق حقيقة وهمية لعدم معرفة الحقيقة الأصلية.

– وهل في هذا ضرر؟

– الأمر يختلف. هناك نوع من الاختلاق ضار، عندما يسيء إلى الآخرين، ويؤذيهم في مصالحهم ومعاملاتهم، ولكنَّ هناك نوعًا من الاختلاق فيه نفع كثير، وخاصةً في ميدان العلوم والفنون؛ فاختلاق أو اختراع فروض وهمية في العلم وصور وهمية في الفن، هي من الوسائل المشروعة للكشف عن الحقيقة الأصلية.

– عجيبٌ أن تكون المعرفة هي أساس الكذب، وهو ضرر، وأن يكون الجهل هو أساس الاختراع، وهو نفع!

– هذا مظهر من مظاهر عدم التحديد لمعاني الكلمات. أما العجب فلا عجب؛ لأن العلم يحدث فيه ذلك. وإذا افترضنا أن المعرفة موجَبة والجهل سالب، فإن الموجَب والسالب متعاونان في إحداث النتائج.

– لكأنك تريد أن تقول إن النفع والضرر متعاونان!

– أحيانًا، كما يتعاون النور والظلام.

– وهل يمكن أن تتوقع من الكذب غير الظلام؟!

– ألم تسمع عن الكذب الأبيض والكذب الأسود؟!

– أعرف ذلك، ولكن الاختلاف في اللون هو اختلافٌ في درجة الضرر.

– صدقت ... والخطورة دائمًا هي في خطأ التقدير وسوء المفاجأة؛ فقد تبدأ الكذبة بيضاء وتنتهي إلى نهاية سوداء.

– حقًّا ... هنا الخطورة ... وأولئك الذين يلعبون بالكذب وهم يريدون الاعتقاد بأنه أبيض يخدعون الناس، عندما يفاجأ الجميع بأن الأبيض انقلب إلى أسود!

– لكن ألا يمكن أن يكون الكذب مشروعًا في بعض الأحوال؟

– نعم، لا يمكن بأي حال أن يكون الكذب مشروعًا، ولكنه يحدث دائمًا، وعلى من يمارسه أن يتحمل مسئولية نتائجه.

– أظنك توافقني على أن هناك بعض حالات يُغتفَر فيها كتمان الحقيقة.
– أعطني مثلًا.
– هذا الزميل الذي حدَّثتك عنه، عندما عرف أن أمه قد خُنِقت، وكتم هذه الحقيقة.
– ألم تخبرني أيضًا أنه تحمَّل نتائج هذا الكتمان، وأنه يعاني من القلق طوال الأعوام؟!
– فعلًا، إنه يعاني ... ويسائل نفسه دائمًا: ما هي الحقيقة؟ ولذلك جئت أُلقي عليك هذا السؤال.
– وهل أجبتك؟
– لست أدري ... هل كل هذا الذي تكلمنا فيه كان هو الإجابة عن السؤال؟!
– إنك لم تحدد لي دافعه إلى هذا السؤال تحديدًا كافيًا؛ أهو دافع شخصي أو دافع عام؟
– أظنه الدافع الشخصي.
– تقصد أن الجريمة التي كتمها هي دافعه إلى السؤال؟
– بالطبع ... إن الحقيقة التي ...
– التي خنقها طوال الأعوام.
– خنقها؟!
– نعم، خنقها ولكنها تتكلم ... دائمًا ... إن الحقيقة المخنوقة لها صوت قوي خفي.

كلما خُنِقت تكلَّمت

– كيف ذلك؟ ميتة تستطيع الكلام؟! ألم تسمع عن المثَل الذي يقول: الأموات لا يتكلمون؟!
– هذا خطأ. إن الأموات يتكلمون أيضًا، وخاصةً من يموت بالقتل عمدًا. حتى القاتل نفسه يتكلم عن جريمته دون أن يريد أو يشعر.
– ما هي تلك القوة التي تكمن في «الحقيقة»؟
– إنها قوة عجيبة فعلًا، مثل قوة الراديوم في إشعاعه الذي يخترق الجدران السميكة.
– نعم، حتى الشاعر العربي القديم عرف هذه القوة يوم قال:

ومهما تَكُن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تَخفَى على الناس تُعلَم

– إن الصحيح هو الصحيح، دائمًا وفي كل زمان ومكان ... وما يصدق في العلم يصدق في الفن.

– حقًّا، ليس في مجال الشعر وحده. هناك أسطورة معروفة، تحكي عن الإسكندر ذي القرنَين، رُوي عنه أنه كان بغير أذنَين، ويُخفي ذلك بغطاء للرأس مُحكَم الإغلاق، ولا يخلعه أبدًا ... ومرض ذات يوم بصداع شديد، وجاء بطبيب طلب منه الكشف عن رأسه فرفض الملك. ولَمَّا أصر الطبيب وألحَّ، حذَّره الإسكندر وهدَّده بالموت فورًا إذا أفضى لمخلوق بالسر الذي سيطلع عليه ولا يعرفه سواه ... وكشف له رأسه، وعرَف الطبيبُ السرَّ، وعالجه وانصرف، وظل يحمل هذا السر في صدره زمنًا وهو لا يجرؤ على الإفضاء به خشيةَ عقاب المِلك، وناء بحمل هذه الحقيقة المخبوءة، وثقُل عليه حملُها وحده، وشعر بحاجة مُلحَّة إلى التخفف منها، فذهب إلى بئر منعزلة، وأطلَّ على أعماقها هامسًا: «الإسكندر ذو القرنَين بغير أذنَين!» ... وسرعان ما ردَّد الصدى جملته، وإذا شجرة بقرب البئر ممتدة الجذور إلى مائها، قد اهتزَّت فيها الأغصان تُردِّد هي الأخرى ما ردَّده الصدى، ثم قامت الريح تُداعِب هذه الأغصان، فنقلت عنها ما تُردِّده، وإذا هي الأخرى تصفر هامسةً: «الإسكندر ذو القرنَين بغير أذنَين»، وانتقلت الريح إلى السواقي، فأخذت هي أيضًا تدور، وفي كل دورةٍ يُسمع لها أزيزٌ ونُوَاحٌ يقول ويُردِّد: «الإسكندر ذو القرنَين بغير أذنَين.»

وهكذا انتشرت الحقيقة المكبوتة.

– أرأيت؟ حتى الأساطير تشهد بقوة الحقيقة المخنوقة!

– هناك أيضًا من الأمثال ما يقول: كل سرٍّ جاوز الاثنَين شاع!

– الأصحُّ أن يُقال: كلُّ سرٍّ، ولو في صدر صاحبه، يشيع!

– إذن، وصلنا إلى سؤال هام: ما هو تعليل ذلك؟

– تريد تعليلًا علميًّا؟

– هذا أقرب إلى الموضوعية.

– إنه قانون الفعل ورد الفعل.

كل فعل لا بد أن يقابله رد فعل ... وفعل الإخفاء يقابله رد فعله، وهو الإظهار.

– إذن، هذا القانون الذي يُطبَّق في المجال الميكانيكي، يمكن أن يُطبَّق في المجال النفسي.

– بالتأكيد.

– وإذا لم يكن هناك إخفاء ولا خنق ولا كتمان ...؟

– لن يكون هناك دافع إلى الكشف والإظهار والإعلان.

– وهل يمكن القول بأن الصراحة والإعلان فعل هو الآخَر يدفع إلى رد فعلٍ هو الإخفاء والكتمان؟!

– لا، لأن ما هو طبيعي وعادي لا يُعتبر فعلًا يدعو إلى رد الفعل؛ فالعطش مثلًا حدث عارض، ليس بالعادي ولا الطبيعي للأحياء؛ ولذلك يدعو إلى ارتواء، ولكن حالة الارتواء لا تدعو إلى العطش؛ لأن الارتواء هو الأصل عند الأحياء. كذلك الصراحة؛ هي الأصل عند الإنسان، فلا يمكن أن يكون لها رد فعل وهو الإخفاء.

– الصراحة هي إذن الأصل في الإنسان؟

– بالطبع ... ولذلك يحرص عليها حرصه على الهواء الطلق.

– حقًّا، وإذا حيل بينه وبينها فإنه يشعر بالاختناق، ويظل يكافح حتى يظفر بها، ويمزِّق ستارها الذي يحجبها. إن من يحجب الحقيقة والصراحة بستارٍ، يُحرِّك في الآخرين الرغبة في تمزيق هذا الستار!

– هذا قانون.

– ولكن الطبيعة التي نعيش نحن وتعيش أنت في كنَفها، لها أسرار تخفى عنا.

– لذلك نبتت عندكم من قديمٍ الرغبة في هتك هذه الأستار، والكشف عن هذه الأسرار. وهكذا وُلد عندكم العلم.

– إذن، نشوء العلم عندنا هو رد فعل لذلك الخفاء المسدول على سر الطبيعة.

– فعلًا.

– ولو فرضنا أنه لم يكن هناك سر في الطبيعة حجبته عن عيوننا، هل كان يُولِّد ذلك القلقَ والظمأ إلى المعرفة، والسؤال الدائم، والطمع في الجواب الشافي، والرغبة الملحَّة في كشف الأسرار؟

– لا طبعًا.

– لماذا إذن تُعذِّبنا الطبيعة بإخفاء أسرارها عنا؟

– لأنكم معشر الإنسان قد كُتِب عليكم الكفاح في سبيل الحقيقة.

– نحن وحدنا دون بقية الأحياء؟

– نعم، أنتم وحدكم.

– أهو عقاب؟!

– وربَّما تشريف!

– لا أظن أن الطبيعة تُعنَى بتشريفنا!

– صدقت، إنها لا تعرف معنى التشريف أو العقاب ... هذه كلمات في قاموسكم أنتم.

– ولعلها لا تعرف أيضًا معنًى لكلمة الحقيقة!
– بالضبط؛ لأنها لا تبحث عن شيء.
– وأسرارها التي تخفيها؟
– إنها لا تخفي سرًّا ... أنتم الذين تطلقون كلمة سر على كل مجهول لكم، محجوب عن وعيكم، غير مجيب على أسئلتكم.
– ولماذا نحن دائمًا نبحث ودائمًا نسأل؟!
– سَل نفسك!
– حقًّا إن هذا الأمر عجيب! ... ما إن نُولد ونُوجد على الأرض حتى ننظر في المهد حولنا، وعيوننا الصغيرة تكاد تسأل عن كل شيء؛ فإذا صرنا أطفالًا واستطعنا الكلام، فإن ألسنتنا المتلعثمة تنهال بالأسئلة على ذوينا إلى أن يضيقوا بنا وبثرثرتنا وإلحاحنا.
– إنها إذن فطرة ... كفطرة القِط الصغير عندما يرى فأرًا صغيرًا ... إنه يجري خلفه ليصيده.
– نعم، وربما لا يكون في حاجةٍ إلى أكله.
– وربما أيضًا لصِغَره لا تكون له بعدُ الأسنان والأنياب التي يُطبِق بها على صيده.
– ومع ذلك كلِّه يجري خلف هذا الصيد!
– فعلًا، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من ذلك.
– نعم، نعم ... وأخيرًا، ألا ترى أننا قد بَعُدنا كثيرًا عما جئتُ هنا من أجله، وأخذنا نَهيم في كل وادٍ، حتى وصلنا إلى القطط والفيران؟! ماذا عساي أقول لذلك الزميل القديم الذي يعذب نفسه بذلك السؤال ... عن الحقيقة؟
– قل له إن الإنسان صيَّاد الحقيقة!
– ماذا تعني؟
– ألم تفهم ما أعني؟
– أوضح قليلًا.

الإنسان صيَّاد الحقيقة

– إذا كان الإنسان هو القط فإن الحقيقة هي الفأر.
– تقصد بذلك أنه يجري دائمًا خلف الحقيقة؟
– بالفطرة كما قلنا ... منذ الصغر ... وقبل أن تنبت له أسنان العقل وأنياب التفكير.

– ما يُدهشني في أمر الزميل القديم أنه — كما قلتُ لك — لا ينوي الانتفاع بالحقيقة التي يجري خلفها؛ فهو لا يريد عقاب القاتل لو اكتشفه؛ لأن الجريمة ذاتها لم يُعلَن عنها، وقد سقط كل حق في إقامة دعوى بشأنها، ولكنه مع ذلك لا يكفُّ عن السؤال.

– هذا طبيعي، ولا يدعو إلى الدهشة إذا تذكرت الأطفال الذين قلت عنهم الآن إنهم لا يكفُّون عن سؤال ذويهم … إنهم — ولا شك — لا ينوون الانتفاع بالحقيقة التي يريدون أن يعرفوها.

– إذن معرفة الحقيقة شيء والانتفاع بهذه المعرفة شيء آخر.

– بدون شك.

– ولكن العذاب الحقيقي هو في محاولة معرفتها. إن الأسئلة التي لا تجد الإجابة عنها تظلُّ هائمةً في النفس كالأرواح المُعذَّبة.

– أو كحال الصيَّاد الذي أفلت منه الصيد!

– إذن لن ينتهي عذاب الزميل القديم إلا إذا عرف من هو قاتل أمه.

– أظن ذلك.

– وكيف السبيل الآن لمعرفة هذا القاتل؟

– لست أدري.

– أليس عندك ما يُنير لنا السبيل؟

– لا أظنك تريد أيضًا أن تُشغِّلني ضابط مباحث أو بوليس!

– عفوًا، ليس القصد … إن ما أريد هو أن أعود إلى زميلي القديم بما يريح باله ويخفف عنه بعض ما هو فيه من حيرة وقلق.

– عندي اقتراح، ربَّما بدا مضحكًا، ولكنه قد يؤدي إلى شيء.

– ما هو؟

– فلينشر إعلانًا في الصحف.

– إعلان في الصحف؟!

– في باب الإعلانات المبوَّبة، عن القاتل أو من يعرف شيئًا عن جريمة الخنق لسيدةٍ في تاريخ كذا وشارع كذا … أن يقدم نفسه وله مكافأة مُجزِية.

– أتمزح؟!

– بل أقول الجِد … إن القاتل يعلم أنه لم يَعُد هناك من حرج أو ضرر في الظهور، وربما أغرته المكافأة السخية أو الفضول أو الرغبة في الاعتراف أو التوبة والندم، أو غير ذلك من الدوافع النفسية الخفية التي تلازم أحيانًا مرتكبي الجرائم … مَن يدري؟

– هذه أول مرة — ولا شك — يُنشر فيها شيء مثل هذا في باب الإعلانات المبوَّبة!

– وما المانع؟! فليكن من قبيل التجديد! أتظلُّ هذه الإعلانات مقصورة على طلبات الوظائف، وبيع السيارات، وتأجير الشقق المفروشة، وشراء أفران البوتاجاز والغسَّالات الكهربائية والحاسبات الإلكترونية؟

– وكذلك توريد المجرمين في الحوادث الجنائية!

– ولِمَ لا؟!

– على كل حال، سأعرض عليه الفكرة، وأرجو أن يتقبلها بروح طيبة، ولا يرى فيها مدعاة للسخرية.

– سخرية! إن الحقيقة نفسها في بعض الأزمنة والأمكنة ليست سوى ضحكة سخرية، ولو كُشِف عن وجهها لظهر ملطَّخًا بالأصباغ، كوجه مُهرِّج السيرك، ولَبَادرتكم بإخراج اللسان وتلعيب الحواجب.

– إذا كانت الحقيقة تسخر منا وتُخرج لنا لسانها وتُلعِّب حواجبها، فنحن أيضًا نُخرج لها عقولنا ونُلعِّب تفكيرنا!

– لا بأس بهذه الألعاب، تشغلون بها وقتكم على الأرض؛ أي على سطحي!

– مهما يَكُن من أمرٍ، فهذه هي الحقيقة!

– اذهب بها إذن إلى زميلك القديم.

– بماذا أذهب إليه؟ وبماذا أجيبه عن سؤاله؟

– وهذا الحديث كلُّه الذي تحدَّثنا به عن الحقيقة، ماذا كان؟!

– الحديث عن الحقيقة ماءٌ في غربال، ورمال بين أصابع!

– لا بد مع ذلك أن تكون قد عِلقت بيدك قطرة ماء وحبَّة رمل ... شيء خير من لا شيء.

– صدقت، وإلى اللقاء، وشكرًا لك!

– مع السلامة ... وأنا دائمًا في انتظارك وخدمتك.

ما هي القوة؟

مضت أيام دون أن أرى ذلك الزميل القديم، وكنت أتوقَّع زيارته بين حين وحين حسب الاتفاق ... وبالفعل، لم ألبث أن رأيته يدخل عليَّ في مكتبي ذات يوم، وفي يده مظروف عليه آثار ختم بالشمع الأحمر، كأنه تقرير من تقارير النيابة العمومية التي كنا نعمل فيها، وقدَّم إليَّ هذا المظروف، وكان مفتوحًا، وهو يقول: «أخيرًا اتضحت الحقيقة.»

ومددت يدي، وتناولت المظروف وهممت باستخراج ما فيه، ولكنه بادرني قائلًا: «سأتركه معك تقرأ ما فيه على مهل، وأعود إليك بعد أيام»، وودَّعني وانصرف. وما كدت أخلو إلى نفسي حتى أسرعت إلى المظروف. اسْتَلْفَتَ نظري العنوان قبل كل شيء ... إنه موجَّه إلى زميلي القديم المستشار المتقاعد الآن، باسمه وصفته، ثم بعد ذلك عبارة وُضِع تحتها خط أحمر مزدوج للتأكيد، هي: «يُسلَّم إليه بعد وفاتي» ... وفي الحال، استخرجت المحتوى ... إنها رسالة طويلة نصُّها الآتي:

«سيدي المستشار، لم أشأ أن يطويني الموت ويطوي معي صفحة من حياتي يجب أن تطَّلع عليها، ولا أقصد من ذلك دفاعًا عن نفسي؛ فما فائدة الدفاع وأنا راقد الآن في قبري؟!

ربما كان الأفضل لي أن أذهب في صمت، وأن أدع جثماني يُوضَع مع سرِّي في كفن واحد، ولكن لست أدري أي دافع يدفعني إلى كشف حقيقةٍ كتمتُها في صدري أعوامًا طويلة؟ لن أجني من ذلك، في أغلب الظن، إلا لعناتك. ومع ذلك، لا بد لي من أن أُطلِعك عليها ... وأنت بالذات؛ لأنك — ولا شك — كنت تفكر طيلة تلك الأعوام فيمن يمكن أن يكون قاتل والدتك. أما كونها قُتِلت ولم تَمُت موتًا طبيعيًّا، فهذا ما لم يكن من الممكن أن يخفى عليك وأنت في ذلك الوقت وكيل نيابة، وأخوك طبيب صحة سابق، وقد لمحت عن

بُعدٍ طريقة نظرته الفاحصة إلى وجه المتوفاة وهي مُمدَّدة على فراش الموت، ثم تهامُسه معك عقب ذلك، أدركت في تلك اللحظة أنكما قد كشفتما الأمر، وأدهشني قليلًا عندئذٍ أن الأمور قد سارت في مجراها العادي، كما لو كانت الوفاة عادية ... تنفَّست الصُّعَداء، وقلت في نفسي إنكما تصرَّفتما بمنتهى العقل والحكمة، ولو فعلتما غير ذلك ووجدت أن إصبع الاتهام تتجه نحوي، لتدفَّقتُ بكلام جهَّزته لمثل ذلك الموقف، فيه بالطبع إساءة لك، وخدش جارح للمرحومة، ولكن الله سلَّم. وأنا أُكِنُّ لك دائمًا الاحترام والتقدير، وربما الحسد، لما تتمتع به من مزايا حرمني القدر منها؛ فأنا منذ كنتُ مرءوسًا لك، كنت أتطلَّع إلى كفاءتك وإلى امتيازك وإلى أحاديث الثناء عليك، فأشعر بضآلتي وتفاهة قدري إلى جانبك؛ فأنت في عُلُوٍّ دائمًا، وأنا في سُفلٍ دائمًا؛ فأنا لم أحصل على مثل شهادتك العالية التي تمنحك الحق في الترقية إلى المناصب العليا، ولن يكون لي الحق أبدًا حتى في شرف الجلوس معك في مجلس أصدقائك وزملائك؛ فأنتم من طينة أخرى. هذا الشعور بالمهانة والضعف هو الذي جعلني أستجيب إلى نظرات والدتك يومَ كنتُ أدخل بيتك حاملًا بعض ملفات القضايا. قالت لي في أول مرة: «اسم الله على شبابك ... طبعًا لك زوجة وأولاد.» فلما أجبتها بالنفي وأني أعيش وحيدًا، بدأت تلاحظني وتهتم بأمري، وتكثر من الابتسام ومن التزيُّن على نحوٍ أشعرني بغرضها. وكان من الممكن عندئذٍ أن أنقطع عن دخول البيت، وأن أُكلِّف الساعي بحمل القضايا بدلًا مني؛ مراعاةً لك، وخشيةً من التَّمادي في هذا الطريق. هذا ما كان يقضي به الخُلُق السليم، ولكني على العكس، كنت أحسُّ في نفسي الرضا والراحة والتلذُّذ أن استطعت غزو قلب هذه السيدة العظيمة والدة رئيسي، وصرت أشجِّعها وأُكثِر من زياراتي بحجة وبغير حجة، وأتخيَّر الأوقات التي أعلم أنك فيها متغيِّب عن البيت ... وتوثَّقت العلاقة بيننا، ورُفعت الكُلفة إلى حد أن جذبتني من يدي ذات مساء، وأدخلتني حجرة نومها لتُطلِعني على بعض ثيابها الجديدة، كما زعمت، وتسألني الرأي فيها، وأرتني بالفعل بعض ثياب داخلية شفافة. ولم يَبْقَ هناك شك في رغبتها الحقيقية، وكادت تَهُمُّ بي على نحوٍ صريح، وقد لمعت عيناها بذلك البريق الذي نعرفه عندما تريد المرأة ... ورأيت الفرصة مواتيةً، فتمنَّعت عليها وأنا أُظهِر الشغف، وقلت لها إن شرطي هو الحلال، وإن علاقتنا يجب أن تقوم على أساس الشرع، وليس على حرام، وتصوَّرت في تلك اللحظة ارتفاع قدري في نظر نفسي ونظرك ونظر زملائي ومعارفي يوم أُصبِح زوجًا لوالدتك. وتم لي ذلك بالفعل، ودخلت بيتك زوجًا وسيدًا مطاعًا، وخرجتَ أنت منه. وكان

هذا طبيعيًّا؛ إذ ليس من المعقول توقُّع غير ذلك، وإنَّ حَرَجنا أنا ووالدتك من سُكناك معنا لم يكن يقلُّ عن حرجك.

فما أظنك كنت تُطيق أن ترى بعينَيك كيف استطعتُ السيطرة بقوة شبابي وفتوتي على أمك التي عليك احترامها وتقديسها. هذا الشعور عندي، بأنَّ من تحترمه أنت أعلوه أنا، كان يملؤني زهوًا وخيلاء، ويُعوِّضني كل شعور بالنقص والضعف، ويمدُّني بقوة كنت أفتقدها في نفسي: قوة السيطرة التي كنت أراها في رؤسائي، وأنت منهم ... سيطرة إصدار الأوامر؛ تلك التي طالما تمنَّيتُها. إنها لم تكن منكم — ولا سيما أنت الدمث المهذب — نابعةً من قوة مادية، بل هي من قوة معنوية. أما سيطرتي على والدتك فقد كانت صادرة عن قوة مادية جسدية بحتة، وكنت أعرف أن اليوم الذي تتراخى فيه قوتي البدنية هو اليوم الذي تتراخى فيه قبضتي على أمك، وكانت هي تعرف ذلك، ولم تكن تَضِيق بسيطرتي، بل كانت تَستَنِيم لها باستمتاع، مُرتشِفةً عصارة هذه القوة إلى آخر قطرة فيها، إلى أن جاء اليوم الذي خشيتُه، فقد أفرطتُ في استنزاف قوتي مرضاةً لها، وتأكيدًا لسيطرتي ... كانت مصارَعة جسدية أقابلها دائمًا بالتحدي، وخارت قوتي في النهاية، ولم أستطع أن أُشبع رغبتها، فانهالت عليَّ تقريعًا، وصارت تقول لي كل ليلة: «يا خيبتك، يا خيبتك!»

... وعاد إلى نفسي الشعور بالمهانة، وأصبح موقفي حرِجًا، وكاد مقامي في البيت يهبط إلى مقام الخدم ... وبعد أن كنتُ أنا الآمر الناهي، صرتُ أنا الذي أتلقَّى الأوامر ... وتعاطَيتُ بعض الوصفات، ثم حاولت معها محاولة أخيرة باءت أيضًا بالفشل ... وضحِكت هي ضحكتها المستهزئة، وردَّدت كلماتها الساخرة: «يا خيبتك القوية!»

فما تمالكت، وصِحتُ بها: «اخرسي، اخرسي!» ولكنها انفجرت بالسباب الفاحش والطعن في رجولتي، فطار صوابي، ووضعت كفِّي على فمها لأُسكِت صوتها الذي يرنُّ في أذني بأفظع ما يُذِلُّ الرجل، وعضَّت هي بأسنانها إصبعي، فأطبقتُ بكل قوتي على ذلك الفم الذي لا يريد السكوت، إلى أن سكت فعلًا، ووقفت معه كل حركة في جسمها. وعندما ثُبْتُ إلى رشدي، كانت إحدى يديَّ لم تزل على فمها، والأخرى قابضة على عنقها ... لقد فارقت الحياة ... ما هذا الذي فعلتُ؟ ما هذا الذي فعلتُ؟ ... جعلتُ أكرِّر هذه العبارة كالمجنون، وصرت أبكي كالطفل، وقد رأيتَني أنت وأخوك الطبيب على هذه الحال من الجزع والأسى ... لم يكن ذلك تمثيلًا أو تظاهرًا، بل كان ذلك حقيقيًّا؛ لأني لم أتصور أن أكون قاتلًا؛ ولذلك رفضت نصيبي — كما تعلم — في ميراث المرحومة، وذهبت إلى حال

سبيلي. ومضت الأيام، واستقر بي المقام في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم، وهناك تزوجت زوجة صالحة تصغرني ببضع سنوات؛ مُدرِّسة أطفال شاركتني حياتي على أحسن ما تكون المشاركة، وكنا نتعاون معًا في كل شيء، حتى في تصحيح الكراريس لتلاميذها، وأنجبت لي بنتًا وولدَين، عكفنا على تربيتهم وتنشئتهم إلى أن دخلوا الجامعة، وتخرَّجت البنت طبيبةً تعمل في أحد المستشفيات، وتزوَّجت بدورها طبيبًا. أما الولدان فأحدهما اليوم مهندس يعمل في إحدى الشركات، والآخَر — ويا للمصادفات! — وكيل نيابة، وكلَّما تصورتُ أنه يحقق مع القتَلة وهو يجهل أن أباه قاتل، تملَّكتني الرعدة … وإني لا أكفُّ عن تأمُّل ما حدث لي، وما وُفِّقت فيه من زوجة طيبة وأولاد ناجحين … إنها سعادة ما كنتُ لأستحقها. أترى الله قد غفر لي؟ أترى عقابي ينتظرني في الآخرة؟ … هذا ما أسائل فيه نفسي وأنا موشك على لقاء ربي. وأنت … يا من كنت خير رئيس لي يومَ كان العمل في النيابة يجمعنا أيام الشباب، ماذا فعلتُ بك؟! وأي ضيق سببته لك؟! ليس من المعقول أن أفكر في صَفْحٍ؛ فإن أقل ما أنا جدير به عندك هو الاحتقار … لعلك تسائل نفسك وأنت تقرأ رسالتي هذه عن فائدتها الآن … أهو الاعتراف بالجريمة والندم عليها؟! … إذن، أمَا كان الأفضل أن أقدِّم نفسي إلى العدالة في الوقت المناسب؟! لماذا أحجمتُ؟! … من السهل أن أجيب بأنه نفس السبب الذي جعلك تُحجِم عن كشف الجريمة والإبلاغ عنها في وقتها: صيانة سمعة المرحومة، ولكن قد يكون الأصح أن أضيف شيئًا آخر هو: جُبني ونذالتي! … وبعدُ … ها أنا ذا قد قلتُ لك كل شيء، وأزحت عن صدري ما كان يُعذِّبني وأُخفيه طوال الأعوام (مرءوسك المجرم).»

طويتُ هذه الرسالة وانتظرت مجيء زميلي القديم إلى أن عاد بعد أيام كما وعد وبادرني قائلًا: قرأتَها؟

قلت له وأنا أردُّها إليه: نعم.

– وما رأيك؟

– ها هي ذي الحقيقة قد انطلقت من منبعها، كالبخار المكتوم حين يُرفع عنه الغطاء.

– ألم يَستَلِفت نظرك شيء آخر؟ باعثه على ما فعل.

– شعوره بالمذلة.

– وهذا الشعور بالمذلة هو الذي أدى إلى رغبته في السيطرة.

– والسيطرة لا بد لها من القوة.

– وما هي القوة؟

– علميًّا، ربما كانت هي الطاقة.

– وما هي الطاقة؟

– ربما كانت القوةَ أو مصدرًا لها، وربَّما كانت القوة هي الطاقة أو مصدرًا لها.

– أرجوك، كلِّمني بكلام مفهوم لي!

– صدقت ... فلنترك هذه التعاريف المعتمدة على الألفاظ؛ لأن الألفاظ خدَّاعة.

– إذن، لا سبيل إلى معرفة معنى القوة التي تؤدي إلى السيطرة؟

– ليس من الضروري أن تؤدي القوة إلى السيطرة.

– وهل يمكن أن تؤدي إلى شيء آخر؟

– هذا يتوقف على نوعها، وعلى توجيهها.

– وما هي أنواعها؟

– لا بد أولًا أن نعرف ما هي.

– حيَّرتَني يا أخي!

– اسمع ... هذه مسائل تحتاج إلى تفكير ... عُد إليَّ بعد أيام، حتى أُقلِّب الأمر على وجوهه.

– وهو كذلك.

ونهض منصرفًا، وأسرعت أنا بالذهاب إلى مغارة المقطم؛ لأنادي وأُحاوِر ذلك الصوت المنبعث هناك؛ صوت الكوكب الذي اعتدت مناجاته ومحاورته في هذه المسائل. وكما فعلتُ من قبل، اتجهت إلى وسط المغارة، واقتربت من البئر العميقة، ومددت رأسي، وسعلت قليلًا قبل أن أهمَّ بالكلام، وإذا بالصوت من البئر قد بادرني هو قائلًا: خيرًا!

فقلتُ له متعجبًا: كيف عرفتَ أني أنا؟

– وهل هناك غيرك؟! ما من أحد سواك يزورني. وما هي مشكلتك اليوم؟

– بسيطة ... إنه مجرد سؤال.

– نعم، كالعادة ... تفضل!

– ما هي القوة؟

– سؤال بسيط فعلًا، ولكنه — كالعادة أيضًا — يتفرَّع ويتشعَّب حتى يتعذَّر عليك الإمساك به.

– ألا يمكنك تلخيص الإجابة في عبارة؟

– إذا شئت، ولكن هذا لن يُغني شيئًا.
– قل على أي حال.

حُسن استخدام الوسائل

– ربما كان من الممكن تعريف القوة بأنها حُسن استخدام الوسائل للغايات.
– إنك لم تَزِدني علمًا بشيء ... أرجو منك إيضاحًا.
– ألم تطلب الإجابة في عبارة؟! هذه هي العبارة، ولكنك الآن تريد الإيضاح، وهذا شيء آخر.
– نعم، أريد الشيء الآخر ... إن كل كلمة في هذه العبارة تحتاج إلى تحليل؛ فمثلًا هل لا بد للقوة من غاية؟
– طبعًا، وإلَّا فكيف نعرفها؟ نحن لا نعرف القوة إلا بتوجيهها إلى غاية أو هدف، وبدون ذلك تصبح مجرد طاقة.
– وما الفرق بين الطاقة والقوة؟
– الطاقة قوة غير مُوظَّفة ... قوة خاملة نائمة؛ فالراديوم مثلًا له طاقة إشعاع ضخمة موجودة فيه دائمًا، ولكنها تصبح قوة فعَّالة حارقة مُدمِّرة إذا وُجِّهت إلى الأجسام أو إلى خلايا الأورام. والشخص النائم طاقاته معه نائمة؛ فإذا استيقظ وسار في الحياة استيقظت معه طاقاته، وعندما يُوجِّهها إلى أغراض حياته فإنها تصبح ما نُسمِّيه قوته، وكذلك المسجون والمجنون؛ طاقات بلا غايات، وقطارات بلا عجلات.
– إذن نقول: طاقة الشمس، ولا نقول: قوة الشمس؛ لأن أشعَّتها غير موجهة إلى هدف بعينه.
– بالضبط، وهذا يحدث في الطاقة الكهربائية؛ فإنها إذا وُجِّهت إلى الإضاءة، تَحدَّد لها هدف، وقلتم: المصباح الكهربائي إنه قوة كذا شمعة، وإذا وُجِّهت إلى مُحرِّك آلة أو سيارة قلتم: قوة كذا حصانًا.
– إذن، القوة لا تكون إلا إذا وُجِّهت إلى هدف وغاية.
– نعم.
– وأنت أيها الكوكب ... هل أنت طاقة أو قوة؟
– أظن أني قوة؛ لأني أتحرَّك لأتفادى جاذبية الشمس.
– وهل هذا هدف؟

– طبعًا ... الجاذبية هدف مُحدَّد؛ لأنه فعل مُوجَّه إلى غاية محددة؛ ولذلك تقولون قوة الجاذبية للشمس، ولا تقولون طاقة الجاذبية ... كذلك القوة العكسية، وهي تفادي الجاذبية؛ فإنها فعل مُحدَّد لغاية محددة. أما إذا لم يُحدَّد لهذه الجاذبية فعل، فإنها تكون كقطعة الحديد المغنط التي لا تُوجَّه إلى جذب شيء، وتُترك مُلقاة في مكان مهمل؛ فإذا وُضِع على مقربة منها دبوس صغير، فإنها تنشط لجذبه في الحال.

– إذن، لا فائدة من الطاقة إذا لم تتحول إلى قوة، والقوة لا تكون إلا بتحديد العمل والتوجيه إلى غاية.

– نعم ... عرفنا الغاية، فما هي الوسيلة؟

– أظن أن هذا شيء واضح. إذا حددت هدفك، فلا بد أن تُحدِّد الوسيلة التي توصلك إليه؛ فإذا كانت غايتك الذهاب إلى مكان ما، فإن وسيلتك تتحدَّد بِقُرب المكان أو بُعده. وإذا كانت غايتك الانتصار على عدو، فإن وسيلتك تتحدَّد بما يملك وما تملك من سلاح.

– ولكنك قلت إن القوة هي في حُسن استخدام الوسائل للغايات.

– هذا صحيح؛ إذ لا يكفي تحديد الوسيلة، بل لا بد أيضًا من حُسن استخدامها؛ إذ ما فائدة سيارة لا تُحسن قيادتها، وسلاح لا تُحسن استعماله؟!

القوة المادية

– كلامنا هذا محصور — فيما يبدو — في القوة المادية، فهل هذه القوة المادية هي كل شيء؟

– لا بالطبع، ولكنها مع ذلك إذا أُحسِن استخدامها فإنها تُحدث آثارًا خطيرة. خذ مثلًا المغول والتتار؛ تلك القبائل والجماعات، كيف استطاعت الإغارة على أُمَم عظيمة والإطاحة بحضارات كبيرة؟ إنها ركزت تركيزًا شديدًا على حُسن استخدام ما بيدها من سلاح، وكان السلاح في عهدها واحدًا في أيدي الجميع، لا يخرج عن السيف والرمح والدرع ثم الحصان، في الدولة المتحضرة والبدائية على السواء، ولكن مشاكل الدولة المتحضرة متعددة، ومشاغلها الروحية والعقلية مُعقَّدة، في حين لم يكن لتلك القبائل والجماعات من شاغل سوى التدريب المستمر على استخدام السلاح. ومن كان يذهب إلى قرية من قرى التتار أو المغول، كان يُدهَش لما يراه هناك من اللعب طول النهار بالسيف وامتطاء الخيول وتربيتها في المراعي الواسعة لإنتاج أحسنها وأسرعها ... خلايا من الآدميين، كل همِّهم وعملهم السيف والخيل، وعندما شعروا أنهم بلغوا الذروة في هذه القوة المادية،

اندفعوا بها إلى الإغارة والغزو ... ولم يشعر أهل الحضارة المستقرة إلا وسيول من الخيول، وبُروق من السيوف، قد اجتاحتهم اجتياحًا.

– وحتى عند الأفراد، نجد مثل ذلك؛ فهناك الرجل المتزن في صحته البدنية والروحية والعقلية، وهناك آخر قد انقطع إلى تقوية عضلات ذراعَيه، وأخذ يتدرَّب على استخدام يدَيه؛ فإذا هو مُلاكِم، وبلطمة واحدة يستطيع القضاء على رجل يفوقه عقلًا وروحًا وثقافةً.

– إذن، ها أنت ذا ترى أن تنمية عضلة والتدريب على حُسن استخدامها يُولِّد قوةً تُحدِث نتائج خطيرة.

– نعم، ولكن الملاحَظ هو أن هذه النتائج الخطيرة التي تُحدثها القوة البدنية، هي دائمًا من قبيل الإغارة والاجتياح والسيطرة.

– طبعًا، وكيف تُريد للقوة البدنية أن تظهر بغير التغلُّب على طرفٍ آخَر؟!

– هذا صحيح، ولكن القوة البدنية سريعة الزوال؛ فهي تنتهي بهبوط الغالب ونهوض المغلوب.

– فعلًا، كما حدث لإغارة قبائل الهكسوس على مصر.

– وكما يحدث لسيطرة الرجل على المرأة بالقوة البدنية!

– نعم؛ لأن القوة البدنية تستهلك نفسها إذا وُجِّهت لمثل هذا الهدف.

– هل القوة البدنية دائمًا عدوانية؟

– يجب أن تُفسِّر لي أولًا كلمة العدوان ... لا شك أنك تقصد به التغلب على طرف آخر للاستحواذ عليه وعلى إرادته وممتلكاته.

– نعم، هذا ما أقصد.

– في هذه الحالة، هي فعلًا عدوانية، ولكن عندما طرد أحمس بجيوشه الهكسوس من مصر لم يكن عمله عدوانيًّا.

– حقًّا، لكن هل يمكن القول إن القوة البدنية هي قوة غير خلَّاقة؛ فهي تُستخدَم إما في الهجوم أو في الدفاع ... في الإغارة أو في طرد المُغير ... وفي الحالتَين، لا تُضيف شيئًا ولا تخلق شيئًا.

– ربما كان الأمر كذلك ... إنها بالطبع ليست مثل القوة الروحية أو القوة العقلية في الخلق والإضافة إلى رصيد البشرية.

القوة الروحية

– وهل القوة الروحية يمكن أن تعمل بذاتها؟ ... دون سند من قوة مادية؟

– هذا حدث بالفعل في المسيحية. لقد انتشرت في أول عهدها بقوة العقيدة وحدها، وكان المسيحيون الأوائل يُلقَى بهم إلى الوحوش وهم يُنشِدون ويُغنُّون، وكما حدث أيضًا في الإسلام قبل الهجرة من مكة، يومَ كان المسلمون يُعذَّبون وهم يتلقَّون التعذيب من أجل العقيدة، ثابتين صابرين. إن القوة الروحية هنا هي التي تُعطي البدن قوة الاحتمال، وليست قوة البدن هي التي تسند قوة الروح.

– ولكن بعض الأديان استند بعد ذلك إلى القوة المادية ليضمن سرعة انتشاره.

– والعكس صحيح؛ فالقوة المادية تعتمد أحيانًا على القوة الروحية لتدعم صلابتها؛ فقد أدرك الغزاة والفاتحون ما للعقيدة من سحر خفي لا يُقاوَم؛ وذلك منذ عرفوا كيف يتلقى المؤمنون التعذيب بالصمود، وفهموا أن الإيمان ليس هو في الشعائر فقط والمظاهر، ولا حتى فيما يدعو إليه من إصلاح، ولا ما يُبشِّر به من منافع، أو ما يَعِد به من ثواب؛ إذ ليس الفقراء وحدهم والمحتاجون هم الذين آمنوا، بل أيضًا بعض الأغنياء والأقوياء ممن لا يبتغون من الدين منفعة. إنما هي شيء في جوهر الدين وفي داخله هو الأعظم ... إنه شعاع عجيب يملأ الصدور نورًا، والنفوس راحةً واطمئنانًا ... إنه شعور لا يمكن وصفه، ويحار العقل فيه؛ لأنه فوق العقل؛ فإذا وُضِع في يد هذا الشيء سيف فإن قوته تصبح هائلة.

– وهذا يفسِّر لنا الحروب الدينية القديمة.

– بل الحروب الحديثة أيضًا ... قلَّما تقوم حروب اليوم دون أن تستند إلى قوة روحية، وليس من الضروري أن تكون دينية بالمعنى القديم، بل هي أديان أخرى في صورة قِيَم ومذاهب، مثل الحرية والديموقراطية والاشتراكية ونحو ذلك. وحتى الحروب العدوانية، لا بد أن تُغلِّف نفسها بغلاف مذهب مزيَّف من المعاني المقبولة والقيم البرَّاقة.

– وهل تُعتبَر الحرية والديموقراطية والاشتراكية من المذاهب الروحية، أو هي نابعة من القوة العقلية؟

– هي في الأصل نابعة من القوة العقلية؛ لأنها جاءت نتيجة تفكير وتمحيص، ونَمَت وتطوَّرت، ولكنها بعد أن استقرت في الوجدان حقيقةً لا تقبل المناقشة عند المؤمنين بها، فإنها تصبح عندئذٍ قوة روحية.

– إن ما يفصل بين القوتَين العقلية والروحية هو أحيانًا دقيق كالخيط الرقيق ... ألا ترى ذلك؟

– إن الفصل بينهما هو ما يقبل المناقشة ... وما لا يقبل المناقشة ...

– لقد قلنا الآن إن القوة الروحية تقترن أحيانًا بالقوة المادية، فهل تقترن كذلك القوة الروحية بالقوة العقلية؟

– بالطبع، وباقترانهما يخرج الفن.

– هل تريد أن تقول إن الفن هو وليد هاتَين القوتَين؟

– أظن ذلك ... وإلَّا فكيف نَصِف الفن؟ أهو ينتمي إلى القوة العقلية وحدها؟ إن العقل بدون شك ضرورة من ضروراته، ولكن هذا ليس كل شيء ... هناك الإحساس والشعور. إن الفن ليس مجرد عملية حسابية، ولا هو مجرد تفكير خالص؛ بل هو شيء يتلقاه القلب إلى جانب العقل. وما دمنا نقول القلب، فقد دخلنا في منطقة الروحية.

– قلت الآن إن العقل يقبل المناقشة، والروح لا تقبل ذلك، فما موقف الفن هنا؟

– الواقع أن موقف الفن مما يدعو إلى الحيرة والعجب، كموقف الابن بين والدَين متناقضَين، غير أنه ما دام ينتمي إلى الاثنَين، فلا بد أن يأخذ شيئًا من كلٍّ منهما؛ فنحن عندما نتأمل عملًا فنيًّا جيدًا، فإنه يقع في قلوبنا في الحال موقعًا حسنًا، ثم يأتي العقل في صورة باحثين ودارسين، فيُحلِّلون عناصره، ويناقشون ما فيها من صواب أو خطأ ... وكلُّ ذلك بمعزل عن حُكم القلب والإحساس، الذي يحب ويُعجَب بالعمل الفني دون اعتبار لأحكام المناقشين بأساليب العقل.

القوة العقلية

– لقد تكلمتَ عن اقتران القوة المادية بالقوة الروحية، وعن اقتران القوة الروحية بالقوة العقلية، فهل يمكن اقتران القوة العقلية بالقوة المادية؟

– بدون شك، ولعل هذا الاقتران هو من أبرز سمات عصورنا الحديثة. وإذا حدَّدنا القوة العقلية بأنها قوة العلم، وتركنا الفلسفة جانبًا — مع كونها هي أيضًا من نتاج العقل — فإن العلم هو الابن الذي ولدته الفلسفة كما ولدت المذاهب المختلفة. والفلسفة — وهي الأم الجالسة المتأملة — ليست قوة في ذاتها، ولكن القوة المباشرة هي في أبنائها من علوم ومذاهب ... واقتران القوة العلمية بالقوة المادية هو الذي جعل لعصرنا الحاضر هذه السيطرة على الطبيعة، وعلى مَن لا يملك العلم.

– حقًّا ... وإذا تذكرنا حروب التتار والمغول، فإنه لا يمكن أن نتصور اليوم أقوامًا من هذا الطراز يستطيعون أن يجتاحوا حضارة من الحضارات.

– طبعًا؛ لأن أسلحة اليوم لم تَعُد هي السيف والرمح والدرع، بل هي أسلحة تخرج من قوة العقل والعلم ... والحرب اليوم لم تَعُد بين سيف وسيف، بل بين علم وعلم ... وسلاح اليوم يُديره العقل أكثر مما تُديره اليد.

– يظهر أن القوة المادية ليست بذات قيمة باقية إذا لبثت وحدها ولم تقترن بقوة أخرى. حتى في أيام المغول والتتار، فإن نجاحهم السريع الداهم كان كالريح العاصفة التي تهب ثم تمضي، ولا تترك شيئًا بعدها غير بعض النوافذ المُحطَّمة. ولو أن المغول والتتار أيام غاراتهم على غيرهم بالقوة المادية، كانت في أيديهم قوة روحية أو عقلية، لَمَا تلاشَوا هكذا سريعًا.

– هذا صحيح ... ولذلك لا يمكن أن نتصور اليوم تفوقًا أو نجاحًا للقوة المادية بمفردها.

– حتى القوة المادية، فيما أظن، قد تغير مفهومها في عصر العلم، وإذا وُجِد اليوم تتار ومغول وأرادوا حربًا، فسلاحهم لا بد أن يكون طائرات قاذفات.

– ومن أين لهم هذه الطائرات القاذفات؟!

– يشترونها من البلاد التي صنعتها.

– تقصد من البلاد التي تملك القوة العقلية؟

– طبعًا.

– وهل ستكون هذه الحرب من قوم لا يملكون القوة العقلية ضد من يملك هذه القوة؟!

– أغلب الظن أن هذا مستحيل ... ولا بد أن تكون مثل هذه الحرب بين بلدَين في نفس الوضع ونفس المستوى العقلي.

– إذن، لو وُجِد التتار والمغول اليوم لكانت حروبهم فيما بينهم، ولا يمكن أن يفكروا في اجتياح حضارة تُنتِج المخترعات الحربية القائمة على القوة العقلية العصرية.

– حقًّا ... ولكن ألا يمكن أيضًا لهؤلاء الأقوام أن يفكروا في تغيير حالهم، وأن ينقلوا أنفسهم من البداوة إلى الحضارة؟

– لا بد لهم إذن من تغيير تفكيرهم القديم، والعمل على اكتساب القوة العقلية. والقوة العقلية، التي تُنتِج في عصرنا القوة المادية الرهيبة، لا يمكن اكتسابها إلا بالعقلية العلمية.

والعقلية العلمية لا تكون ولا تقوم إلا على أساس المناقشة الحرة والبحث والفحص والتمحيص لكل الحقائق والعناصر والقيم والمُسلَّمات وتركيب الكائنات.

وما المانع من ذلك؟

في المجتمعات البدائية، هناك دائمًا موانع.

– ولكن هناك مجتمعات حضارية تنهزم أيضًا ... أمام مجتمعات حضارية أخرى.

– هزيمة البلد المتحضر لا قيمة لها، ولا يُعتَدُّ بها؛ لأن القوة العقلية لا تنهزم، وهي سرعان ما تُنتِج تفوُّقًا في ناحية أخرى، كاليابان؛ انهزمت حربيًّا وانتصرت اقتصاديًّا. وكذلك ألمانيا وإيطاليا. أما فرنسا فهي كلَّما انهزمت تألَّقت.

– فعلًا، الحضارات لا تموت ... الحضارة تُنتِج الحضارة، كالشجرة المثمرة؛ إذا هرِمت خرج من بذورها أشجار أخرى.

– إن الفكر هو القوة الدائمة المتجددة ... من التفكير خرجت الفلسفة، ومن الفلسفة خرجت — كما قلنا — القوة الروحية والمذهبية، ثم القوة العلمية ... وكلُّ هذا يُسمَّى الحضارة.

– لكن بماذا تُفسِّر حياة مصر هذه الآلاف من السنين على الرغم من هزائمها؟

– لأنها في أيام هزائمها كانت تتغذَّى بحضارات المُغيرين، وتهضمها وتُحيلها دماءً جديدةً في شرايينها، تقوى بها على طردهم، وهي يومَ يُغلَق فمها عن الابتلاع، وتضعف مَعِدتها على الهضم، فإنها تتدهور، ولا أقول: تموت.

– ألا يمكن أن تموت يومًا؟

– لا يمكن وآثار حضارتها مع الحضارات كلها على أرضها ... إنها تنام أحيانًا، ولكنها تنهض ... تركيبها الطبيعي هو خَلْق الحضارة ثم امتصاص الحضارات الأخرى.

– ولكنها تجترُّ أحيانًا العلف الجاف.

– تقصد الماضي العتيق الذي لا عُصارة فيه؟ إن في خزائن الماضي، مع ذلك، أوراقًا خضراء ... ربما قِصَر النظر، وضَعف الوعي هو السبب في سوء الاختيار.

– حقًّا ... إنها عندما يستيقظ فيها الوعي وتُحسِن الاختيار وتُلائِم في غذائها بين الجيد الحي في تراثها، والجديد الناضج في الحضارات المعاصرة، فإنها تعود إلى قوتها الخلَّاقة، لتُضيف بشخصيتها المتميزة ما يُبهِر البشرية.

– نعم، القوة العقلية خلَّاقة دائمًا.

القوة الاقتصادية

– ولكن هناك قوة لا ندري أين موضعها؟ أهي تنتمي إلى القوة المادية أو القوة الروحية أو القوة العقلية؟ … تلك هي القوة الاقتصادية.

– من الصعب تحديد الخانات بهذا الشكل؛ فإن كل هذه القوى متداخلة بعضها في بعض بنسب متفاوتة … وعندما عرَّفنا القوة تعريفًا عامًّا، بأنها حُسن استخدام الوسائل للغايات، لم نُحدِّد تمامًا الفواصل بين ما هي وسيلة وما هي غاية؛ فالطعام مثلًا إذا اعتبرناه غاية نبحث للوصول إليه عن وسيلة، فإن هذا الطعام نفسه عندما نحصل عليه، ونتغذى به، ويمدُّنا بالحيوية والقوة، فإنه عندئذٍ يصبح وسيلة للوصول إلى غاية روحية أو عقلية.

– ولكن الطعام، فيما أعتقد، هو الأمل والغاية.

– بدون شك … من أضأل الكائنات إلى أرقاها؛ من الجراثيم إلى الإنسان. كل الكائنات الحية تبحث، أولَ ما تبحث، عن غذائها. والمعرفة الأولى لكل كائن حي هي أن يجد غذاءه. إن أولى الغايات كانت هي الغذاء، وأولى الوسائل هي كيفية الحصول عليه. وعندما فكَّر الإنسان الأول في وسيلة لصيده، بدأ العلم … وعندما اكتشف الوسيلة بصنع سكين من الحجر، بدأ العلم التطبيقي أو التكنولوجيا … وعندما رسم على جدران كهفه صورة الحيوان الذي يصيده، بدأ الفن … وعندما رفع عينَيه إلى السماء يستنزل المطر لزرعه، بدأ الدين.

– إذن، كل الأشياء العظيمة التي يفخر بها الإنسان قد بدأت من أجل الطعام؛ أي لأغراض اقتصادية.

– ليس عند الإنسان فقط … عند النملة أيضًا. إن النظام الاقتصادي في عالم النمل، وطريقة تخزين غذائه، وادِّخاره لوقت الحاجة، لَممَّا يدعو إلى العجب … ولعل له طريقة في التوزيع أيضًا قد تتمشَّى مع أحدث المذاهب والنظريات.

– إذن، القوة الاقتصادية هي أولى القوى، ومن أجلها ظهرت كل القوى الأخرى، في صورة وسائل.

– هذا صحيح، وإن كانت القوى الأخرى تطوَّرت بعد ذلك إلى أن أصبحت لا مُجرَّد وسائل للطعام، بل غايات مستقلة، أو وسائل لغايات أرقى من مُجرَّد الطعام.

– حقًّا … إن الدين والفن والعلم كلها اليوم وسائل للكشف عن حقائق أسمى وأعلى.

– نعم، ولكن يبقى مع ذلك أن القوة الاقتصادية قد تطورت هي أيضًا مع الإنسان، كما تطوَّرت وسائلها، وأصبحت بالنسبة إلى الفرد وإلى الدولة مقياس قوة وسيطرة.

– فعلًا ... لقد تغير مفهوم هذه القوة ... لقد كانت في الأصل هي ضرورة حياة للكائنات الحية ... هي الغذاء الضروري لحياة كل كائن. وما كان كل كائن يأخذ من غذائه إلَّا على قدر حاجته ... لم يكن من الطبيعي أن يأخذ كائن على قدر قوَّته؛ فالأسد — مثلًا — ما كان يفترس القطعان من الماشية ليُكَدِّس جُثَثَها قناطير مُقنطَرةً للاعتزاز بقوته، بل كان يفترس منها ما يفي بحاجته.

– حقًّا ... إن متاعبكم بدأت منذ اتخاذ القوة الاقتصادية مظهر عزة وسيطرة. لقد كان أحد رجال الاقتصاد في القرن الماضي يُعرِّف الدولة القوية بأنها الدولة المتفوِّقة في الزراعة والتجارة والصناعة وتملك المستعمرات؛ وذلك قياسًا على الرجل القوي، وهو الأصيل المَنْبَت، الخطير المَنصِب، الوافر التعليم، ويملك عزبة من العِزَب. وظلَّت هذه الصورة للفرد القوي والدولة القوية زمنًا طويلًا، وأدت إلى كثير من المنافسات والحروب، ونتج عن الحروب زوال الكثير من المستعمَرات بتمرُّدها واستقلالها.

– ونتج أيضًا عن استقلال المستعمرات أنها تطلَّعت إلى هذه الصورة المعروفة عن الدولة القوية، وأهم ما فيها الصناعة، وأرادت أن يكون لديها هي الأخرى صناعة قوية؛ حتى لا تكون مجرد عزبة ... وإذا نجحت في إقامة صناعات كبرى تُنافِس بها الدول الكبرى، كما تُنافِس بها بعضها بعضًا، فإن المُصادَمات لن تنتهي.

– لا بد إذن من عملية تنظيم على هذا الكوكب.

– هذا الكوكب الذي هو أنت، إلى متى ستسيل الدماء على جبينك؟

– إلى أن ينتهي جنونكم.

– جنوننا ينبع من الرغبة في السيطرة.

– إذا استطعتم أن تُحوِّلوا، بحُسن التصرُّف، هذه السيطرة إلى تعاون، فقد نَجَوتُم.

– نعم، ولكن كيف؟

– يبدو في الأفق أنَّ هذا ممكن، مع التعقُّل والصبر والمثابَرة ... انظر إلى الدول القوية في أوروبا، التي كانت تتنافس فيما بينها على الأسواق، حتى أكلتها الحروب، ها هي ذي في سبيل التعاون بدلًا من التنازع، وفكَّرت في إنشاء السوق الأوروبية المشتركة.

– أظن أننا مُقبِلون على عصر لن تكون فيه السيطرة ممكنة الوجود.

– هذا صحيح، ويبدو أن الدول الكبرى قد فَهِمَتْ ذلك، وأدركت أن السيطرة بالقوة وفرض الإرادة بالعنف أشياء في طريقها إلى الزوال؛ لأن العنف يُولِّد العنف، وقد أصبح مُكلِّفًا غير مُربح ... بل إن الخسائر التي تنتج عنه، من الجسامة بحيث لن يُعوِّضها أي مُكتسَب.

– نعم، إن التعاون الاقتصادي — سواء كان في صورة تكامل أو تبادل كما يحدث بين دول أوروبا، وكما هو في سبيل أن يحدث بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وبين هذه الأخيرة والصين — هو خير حَلٍّ لإبعاد فكرة السيطرة المُدمِّرة، والاقتراب من التنفيذ الحقيقي للتعايش في ظل السلام والرخاء العام واحترام كل دولة لنظام الدولة الأخرى، ومذاهبها ومبادئها وعقائدها.

– لعل هذا هو الذي سيُضطَرُّ إليه الجميع غدًا، وهو ترك الحرية لكل شعب يختار بنفسه الطريق الملائم له، المُحقِّق لآماله، والنابع من صميم إرادته وحاجته وظروف حياته وتطوُّره الاجتماعي.

– كل هذا ممكن بالنسبة إلى الدول القوية، ولكن الدول الضعيفة والمستقلة حديثًا، هل تُترَك لها الحرية فتنمو اقتصاديًّا وصناعيًّا؟

– فعلًا، هذه هي مشكلة اليوم ... الدول الصغرى هي المشكلة الآن.

– هل قُدِّر لها أن تبقى دائمًا سجينة وضعها الاقتصادي، مُصَدِّرة للمواد الخام، مستقلة سياسيًّا، ولكنها لم تزل عزبة اقتصادية، يتحكم في أسعار منتجاتها الاحتكاريون من سادة الصناعة الكبرى؟!

– هذا وضعٌ لا بد أن يتغير يومًا ... بكفاح هذه الدول الصغرى، وتطوُّرها العلمي والاجتماعي ... وعندئذٍ تستطيع أن تتخصَّص في نوع من الصناعات ملائم لبيئتها، تَسُدُّ به، على الأقل، حاجة سوقها المحلية ... وإذا بلغ إتقانها لهذه الصناعة درجة ممتازة، فإنها قد تشقُّ لها طريقًا في الأسواق العالمية.

– وهل تتركها الصناعات الكبرى في الدول القوية تشقُّ هذا الطريق دون أن تخنقها؟

– أحيانًا يحدث العكس؛ فإن هذه الصناعات الكبرى تجد من مصلحتها شراء المنتجات في الدول الصغيرة إذا كانت أرخص وأحسن، وتتخفَّف هي من هذه الصناعة لتُكرِّس جهدها وتتفرَّغ لصناعات أخرى أثقل وأعقد وأربح ... إنها قد لا تجد بأسًا في حصول الدول الصغيرة على الآلات والمصانع منها بأسعارها الباهظة، وتأخذ هي منتجات هذه الصناعة بأسعار متواضعة.

– معنى هذا أن الدول الكبرى بعد أن كانت تأخذ من الدول الصغرى المواد الخام والمنتجات الزراعية، أصبحت تأخذ أيضًا المنتجات الصناعية؟

– إنه تقدُّم على كل حال، وانتقال من مرحلة الزراعة أو المواد الخام إلى مرحلة الصناعة والمواد المُصنَّعة ... إنها خطوة أولى، قد تعقبها — إذا تقدمت الدول الصغرى

وتطوَّرت — خطوات أخرى نحو الصناعة الكبرى، وإنتاج الآلات نفسها، والمصانع ذاتها، والمُحرِّكات الدقيقة، والقطارات، والطائرات، ونحو ذلك مما لا يستطيع إنتاجه غير الصناعة المتقدمة في بلاد العلم والحضارة الحديثة.

– وما الذي سوف يحدث عندئذٍ ... يومَ تتقدَّم الدول الصغرى إلى هذا المستوى العالي من الصناعة الكبرى؟ ألن يقع ذلك التنافس الذي ذكرناه، ويَعقُبه التصادم الذي تحدثنا عنه؟

– إنها حلقة مُفرَغة، ولا حل وقتئذٍ إلا ما ذكرتُه لك الآن، وهو التخطيط الشامل للاقتصاد العالمي كله على أساس التعاون، واستبعاد فكرة السيطرة.

– نعم، السيطرة ... هذه القوة المُدمِّرة!

– ولا يُقابلها إلا التعاون ... هذه القوة المُثمِرة!

– تذكَّر أني حدَّثتك عن ذلك الشخص الذي أراد السيطرة، فتزوج امرأة في سن أمه، وانتهى إلى قتلها، ثم تزوج مرة أخرى على أساس التعاون، فاستقامت حياته معها وكانت حياة مُثمرة، وأنجبا ذرية صالحة، وقد اعترف بذلك في آخر حياته، ونَدِم أشدَّ الندم على سوء فهمه لمعنى القوة.

– هذا شيء طبيعي ... وإنَّ جهلنا بمعنى القوة هو الذي يؤدي بنا إلى الضعف. إن قوة التعاون تنتج من إضافة قوة إلى قوة. أما قوة السيطرة فتأتي من تضخُّم قوة على حساب قوة. إن قوة جسم الإنسان لا تنبع من طُغيان خلايا، بل من التناسق والتعاون والتعادل بينها جميعًا.

– فعلًا ... طُغيان خلايا على خلايا هو مَرَض ... إنه السرطان.

– نعم، والإنسان يعرف ذلك في جسمه، ومع ذلك يمارسه في سلوكه العام.

– أهي نزعة في الإنسان تدفعه إلى التدمير؟

– المُلاحَظ أن الطفل ينزع إلى التدمير قبل أن يعرف البناء، وكذلك الإنسانية؛ عندما تقدَّمت في العلم، واهتدت إلى الأسرار النووية الرهيبة؛ فإنها اتجهت بها إلى اختراع القنابل التي تُهلِك وتُدمِّر وتُبيد.

– إذن، الإنسانية لم تزل في طفولتها على الرغم من هذا التقدُّم العلمي الخطير.

– بالطبع ... هي لم تزل في طور الطفولة الأولى. وإذا كان عمرها مليون سنة، فما قيمة هذا المليون الواحد إلى جانب الملايين السبعين التي عاشها حيوان مثل الدينوصور قبل أن ينقرض؟! ... ولعله انقرض لأن جسمه كان أضخم من عقله، وربما ينقرض الإنسان أسرع منه؛ لأن عقله أضخم من قلبه.

– ماذا تقصد بقلبه؟

– أقصد نزعة العدالة والإنصاف والسلام ... ولو أن هذه النزعة الخيِّرة نَمَت بمقدار نمو عقله، لاستطاع أن ينقذ نفسه من الانقراض السريع؛ فهو مَقضيٌّ عليه بالهلاك جوعًا إذا لم يستطع أن يَقرِن القوة العلمية بالقوة الاقتصادية ... إنه حتى اليوم يَقرِن القوة العلمية بالقوة المادية لصنع أسلحة التدمير؛ فإذا كرَّس اهتمامه بصورة فعَّالة ورغبة صادقة لجعل القوة العلمية تقترن بالقوة الاقتصادية، لِصُنع طعام يَسُدُّ حاجة البشرية كلها، فإن تاريخ الإنسان يتغير، ويكون الإنسان قد خرج من مرحلة الطفولة، ليدخل مرحلة جديدة لا تعرف التدمير، ولكن تعرف البناء.

– ومتى يمكن، في تقديرك، الدخول في هذه المرحلة الجديدة؟

– إذا زال خوف الإنسان من الإنسان!

– وما الذي يدعو إلى هذا الخوف؟

– الطغيان.

– وكيف يأتي الطغيان؟

– من الرغبة في السيطرة.

– وكيف نقتلع هذه الرغبة في السيطرة؟!

– لست أدري ... هذا شيء يخصُّكم؛ فابحثوا فيه.

– ربما كانت ضرورة الحياة تدعونا إلى ذلك يومًا.

– ربما ... إن قوة الحياة تدعو إلى التكيُّف ... وما لا يتكيَّف يَنقرِض.

– يُقال، أيها الكوكب، إن بعض الحيوانات، ومنها الدينوصور، قد انقرض لأنه لم يستطع التكيُّف مع التغيُّرات التي حدثت لك.

– طبيعي.

– أتظن أنه قد تحدث لك تغيُّرات لن نستطيع — نحن بني الإنسان — أن نتكيَّف معها؟

– عِلمي عِلمك!

– ألا تعرف ما سوف يحدث لك؟

– وهل تعرف أنت ما ينتظرك من مصير؟

– لا أعرف بالضبط، ولكن مصيري مرتبط بمصيرك أنت يا كوكبنا.

– مصيرك مرتبط بعقلك أكثر مما هو مرتبط بي؛ لأن ما يمكن أن يحدث لي من تغيُّرات تؤثر فيك لا يكون قبل مليون سنة، وربما في خلال هذا المليون سنة القادمة تكون أنت قد صرت شيئًا آخر.

– ماذا تعني؟

– ربما تضخَّمت القوة العقلية عندك تضخُّمًا يَطغى على بقية أعضائك؛ فإما أن تَنُوء تحت وطأة هذه القوة وتنهار وتنقرض، وإما أن تُعادِل هذه القوة العقلية قوة روحية، وعندئذٍ قد ينتج من تعاون هاتَين القوتَين قوة هائلة تُحدِث تغييرات في وظائف أعضائك وفي شكلك نفسه.

– شكلي نفسه؟ ... يصبح غير ما أنا عليه الآن؟

– محتمل جدًّا أن تكون شيئًا آخر غدًا.

– مثل ماذا؟ هل عندك فكرة؟!

– عجبًا لك! أتريد مني أيضًا أن أتخيَّل لك! أين عقلك أنت وخيالك؟!

– في تخيُّلي أن القوة العقلية والقوة الروحية إذا لم تقم عقبات في طريق تطوُّرهما، وتَمَّ بينهما التكافؤ في النمو والتعاون في الخَلْق والنشاط، فإن القوة المادية والبدنية لا بد أن تتكيَّف معهما، وهذا يقتضي منها تغييرًا في وظائفها وفي أحجامها ... ولعل هذا ما تقصده من تغير شكل الإنسان.

– ربما كان الأمر أكثر من ذلك ... في المدى البعيد.

– هناك سؤال هام: ما مدى حدود القوة؟ ... عندنا طبعًا ... هل تستطيع القوة العقلية أو الروحية أو المادية، أو حتى الاقتصادية، أن تنمو إلى غير حد؟!

– ما هذا الهراء؟! أيوجَد شيء لا يُحَد؟ كل شيء له حدٌّ أقصى في القوة، يتحتَّم الوقوف عنده. إن الخيط إذا شَدَدْتَه إلى أكثر من احتماله انقطع، وإن الشجرة لا تظل تنمو بغير حدٍّ حتى تبلغ السماء. إن القوة هي القدرة الكامنة في الأداة والوسيلة ... قدرةٌ طاقتُها محسوبة؛ فإذا استُخدِمت هذه القدرة بأكثر مما تتجه له طبيعتها أو شحنتها، فإنها تنكسر أو تنقلب إلى عجْز. وهنا نعود من حيث بدأنا، عندما قلنا: «إن القوة هي حُسن استخدام الوسيلة للغاية.»

– حقًّا ... لقد عُدنا إلى نقطة البداية!

– هذا حالنا جميعًا.

– وخاصة أنت، الذي تدور حول نفسك وحول الشمس، وتعود دائمًا من حيث بدأت ... كم مرةً، يا تُرى، عُدت إلى نفس الدورة في رحلتك الطويلة حول الشمس؟ أظن أكثر من أربعة آلاف مليون مرة ... أَيْ دورة!

– تقريبًا.

– ألم يخطر لك ذات مرة أن تقف قليلًا لتستريح؟

– أمجنون أنت؟!

– مجرد فكرة.

– ولماذا لا يقف قلبك لحظةً وهو لا يكفُّ عن الحركة طوال حياتك؟!

– صدقت ... إن في هذا موتي.

– وموتي أيضًا.

– نعم، الوقوف عن الحركة موت!

– ووراء الحركة القوة الدافعة ... قوة الحياة ... أمُّ القُوى!

– حقًّا.

– وأخيرًا، هل وجدت الإجابة عن سؤالي؟

– يعني!

– ثِقْ أنه لا إجابة كاملة عن سؤال في هذا الوجود ... والمهم هو إيقاظ التفكير ... إن في حركة الفكر القوة الدافعة إلى التقدُّم.

– شكرًا لك يا كوكبنا العزيز!

هنداوي